مفهوم التوبة بين الصوفية والمعتزلة
وموقف أهل السُنة منهم

إعـــداد

د. أحمد شاكر عبد العزيز

مدرس الفلسفة الإسلامية– قسم العلوم الإجتماعية

بكلية التربية – جامعة دمنهور

مجلة الدراسات التربوية والانسانية . كلية التربية . جامعة دمنهور

المجلد الثالث عشر– العدد الرابع – الجزء الرابع – لسنة ٢٠٢١

مفهوم التوبة بين الصوفية والمعتزلة وموقف أهل السُنة منهم

د. أحمد شاكر عبد العزيز

الملخص

فعنوان البحث هو "**مقام التوبة بين الصوفية والمعتزلة وموقف أهل السُنة منهم**"، فإننى أعتقد بأن الكلمات البكر الأولى، الغضة هى التى تستغرق البحث وتتلمس جوانبه كأنها الأم الحنون، فإن التوبة هى البداية الحقيقية للطريق الصحيح، وإذا حدث تخلف وانحراف عن هذا الطريق، فإن التوبة تمثل تصحيح وسط الطريق، أما النهاية للطريق فتجد فيه مقام التوبة بمثابة الأقدام الثابتة الراسخة التى تجعل الإنسان يشم نسمات الجنة ورياحينها، وبصيص من النور فى القلب يجعل من رؤية الإنسان لخالقه ممكنة.

فإذا صح مقام التوبة، ونزل العبد فى هذه المنزلة، قد تميز عنده ما له وما عليه. فليجمع همته وعزمه على النزول فيه والتشمير إليه إلى الممات. كما أن التوبة هى حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل فى مسمى التوبة وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. وإنما يحب الله من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. فالتوبة أول منزل من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين، فحقيقتها فى لغة العرب: الرجوع، يقال: تاب أى رجع، فالتوبة الرجوع عما كان مذموماً فى الشرع إلى ما هو محمود فيه. فالتوبة بوابة الرجوع إلى الله تعالى، وترك كل المعاصى كبيرها وصغيرها والندم على فعلها والعزم على عدم العودة إليها.

فالتوبة عند مشايخ التصوف علم وعمل لدرجة أن ذو النون المصري يرى أن العلوم ثلاثة: أولها علم التوبة وقبله العلم العام والخاص، فيصل الحال عندهم أن من يطلب الإرادة قبل تصحيح التوبة، فهو في غفلة وجهل عما يطلب. فإن التوبة رجوع ثم الاستغراق فى الطاعة. وبذلك تكون التوبة المقبولة هي التى تكون مقرونة بالعمل وبالتالي فإن ارتكاب الخطأ قبيح ومذموم، والرجوع من الخطأ إلى الصواب طيب ومحمود، وهذه توبة العامة، فإن الاستقرار مع الصواب وقفة وحجاب. والرجوع من الصواب إلى الأصوب محمود فى درجة أهل الهمة، وهذه

توبة الخواص، ومحال أن يتوب الخواص من المعصية. فإن مخافة العارف على طاعته أشد من مخافته من مخالفته، لأنه يورث من المخالفة: الندم، والتوبة، والرجوع إليه. ويورث من الطاعة الرياء والكبر". فإن التوبة عند مشايخ الصوفية تهذيب وإصلاح للنفس، فالتائب يتوب من توبته.

الكلمات الدليلية: التوبة، الأواب، المنيب، المعتزلة، الصوفية، أهل السَّنة، التوبة فرض، التوبة مستمرة، التوبة علم وعمل.

المقدمة

اللهم لا براءة لى من ذنب فأعتذر، ولا قوة لى فأنتصر، ولكنى مذنب مستغفر. اللهم لا عذر لى. وإنما هو محض حقك، ومحض جنايتى. فإن عفوت وإلا فالحق لك. فقد ثبت فى مسند الإمام أحمد أن أصحاب الرسول –صلى الله عليه وسلم– كانوا يعدون له فى المجلس الواحد قبل أن يقوم "ربى اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور، مائة مرة".(١)

فعنوان البحث هو "**مقام التوبة بين الصوفية والمعتزلة وموقف أهل السُنة منهم**"، فإننى أعتقد بأن الكلمات البكر الأولى، الغضة هى التى تستغرق البحث وتتلمس جوانبه كأنها الأم الحنون، فإن التوبة هى البداية الحقيقية للطريق الصحيح، وإذا حدث تخلف وانحراف عن هذا الطريق، فإن التوبة تمثل تصحيح وسط الطريق، أما النهاية للطريق فتجد فيه مقام التوبة بمثابة الأقدام الثابتة الراسخة التى تجعل الإنسان يشم نسمات الجنة ورياحينها، وبصيص من النور فى القلب يجعل من رؤية الإنسان لخالقه ممكنة.

أهمية الموضوع:

إذا صح مقام التوبة، ونزل العبد فى هذه المنزلة، قد تميز عنده ما له وما عليه. فليجمع همته وعزمه على النزول فيه والتشمير إليه إلى الممات. كما أن التوبة هى حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل فى مسمى التوبة وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله. فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين. وإنما يحب الله من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. فالتوبة أول منزل من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين، فحقيقتها فى لغة العرب: الرجوع، يقال: تاب أى رجع، فالتوبة الرجوع عما كان مذموماً فى الشرع إلى ما هو محمود فيه. (٢) فالتوبة بوابة الرجوع إلى الله تعالى، وترك كل المعاصى كبيرها وصغيرها والندم على فعلها والعزم على عدم العودة إليها.

---

(١) مسند الإمام أحمد، ٦/٣٢٨، عن عبدالله بن عمر.

(٢) القشيرى، الرسالة، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح، القاهرة، د.ت، ص٩٥.

فإن التوبة أول المنازل، وأوسطها، وآخرها. فلا يفارقها العبد السالك، ولا يزال فيها إلى الممات. وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل بها. واستصحبها معه ونزل بها. فالتوبة هى بداية العبد ونهايته. وحاجته إليها فى النهاية ضرورية. كما أن حاجته إليها فى البداية كذلك. وقد قال الله تعالى: "وتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [النور/٣١]. فالتوبة لا يستريح منها القلب لحظة، فهى راحة القلوب، فحكى عن أبى على الروذبارى، أنه قال: "النهاية كالبداية والبداية كالنهاية. فمن ترك فى نهايته شيئاً مما كان يفعل فى بدايته فهو مخدوع"[٣]. لأن الوقت إذا فات ليس يدرك. وليس الوقت الذى يكون معموراً بهوى النفس ونزعات الشيطان، إنما الوقت ما يكون معموراً بالذكر والإخلاص والرضا. وهذا مراد الرحمن

ولأهمية مقام التوبة أفرد لها الخالق فى كتابه العظيم سورة كاملة سميت سورة التوبة، فإن من نزل فى منزل التوبة وقام فى مقامها نزل فى جميع منازل الإسلام. فإن التوبة الكاملة متضمنة لها. وهى مندرجة فيه. وأصبحت التوبة رقيب العمل. [٤] وسيدنا عمر بن الخطاب يرى التوبة النصوح فى أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع، وهذا تأكيد على الجانب العملى، وقال الحسن البصرى (ت ١١٠هـ) مؤكداً أيضاً على البعد العملى، التوبة: هى أن يكون العبد نادماً على ما مضى، مجمعاً على أن لا يعود فيه، وقال الكلبى: "أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن"، وقال سعيد بن المسيب: "توبة نصوحاً. تنصحون بها أنفسكم جعلها بمعنى ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب". حتى إن الإمام جعفر الصادق يرى[٥]: "العبادة لا تصح إلا بالتوبة، فإن الله تعالى قدم التوبة على العبادة فى قوله:

---

(٣) السلمى، رسالة فى غلطات الصوفية، تصحيح/ عبدالفتاح أحمد الفاو محمود، ضمن كتاب مجموعة آثار أبوعبدالرحمن سُلمى، مركز نشر دانشكهاى، طهران، ١٣٨٨ هـ، ص٤٧٠.

(٤) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، صححه وأخرج أحاديثه/ محمد عبدالله، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٢٣٧.

(٥) العطار، تذكرة الأولياء، جـ١، تحقيق وترجمة د/ منال اليمنى عبدالعزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٣٨.

"التَّائِبُونَ العَابِدُونَ" [التوبة/١١٢]. وأقول المعنى هنا أنه لابد من التوبة أولاً من الكفر، وثانياً من المعاصى، وثالثاً من الرياء، ثم الاشتغال بالعبادة، فأولاً بالإسلام، ثم بعبادات الدين، ثم بالإخلاص فإن ذكر التوبة عند ذكر الله غفلة عن ذكر الله، لأن ذكر الله حقيقة لا يصير إلا بنسيان ما سوى الله".

فكما قال طاووس بن كيسان (ت ١٠٦ هـ): "قلب التائب كالزجاجة يؤثر فيها ما أصابها، فالموعظة إلى قلوبهم سريعة". فإن التوبة ليست حكراً على شخص أو طائفة دون الأخرى، لهذا فهى فرض عينى وواجبة على كل مسلم بالغ عاقل فهى لب الإيمان وصاحبة العمل الصحيح، فالحسن البصرى يقول: "التوبة مأمور بها، ومدعو إليها".(٦) ففى كتاب مقامات اليقين وأحوال الموقنين، يرى المكى(٧) أن المقامات تسعة تبدأ بالتوبة وتنتهى بالمحبة، فإن الطريق إلى الله يبدأ بالتوبة، وجعل من التوبة فرض وواجب على كل مسلم، ولها فضائل فى رسم حياة الصوفى الأخلاقية، فتبدأ بالتوبة وتنتهى بالمحبة. فهناك شبه إجماع على أن التوبة من جميع المعاصى واجبة وأنها واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة. وأصبحت التوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة ووجوبها شرعاً.

ويعتبر الخلاف الجوهرى الوحيد تقريباً حول التوبة هو كيفية الوجوب، فأهل السنة ومشايخ الصوفية يؤكدون على وجوبها شرعاً، أما المعتزلة فترى وجوبها عقلاً، ثم تتابعت بعض الإشكالات، لكنها إن دلت على شئ، إنما تدل على أهمية هذه المسألة. وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها، فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً. ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه. ولو أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم. فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات

(٦) الحسن البصرى، رسالة فى القدر، ضمن كتاب رسائل العدل والتوحيد، جـ١، تحقيق د/ محمد عمارة، دار الهلال، القاهرة، د.ت، ص٨٧.

(٧) المكى، قوت القلوب، جـ٢، تحقيق د/ عبدالحميد مدكور، د/ عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٢٩١.

والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها.[٨] فإن الغافل عن التوبة ظالم لنفسه قال تعالى: "وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" [الحجرات/١١] قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث البتة. وأوقع اسم الظالم على من لم يتب. ولا أظلم منه، لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات أعماله.

قالت رابعة العدوية: "الاستغفار باللسان صنعة الكذابين"[٩] وسئل أبوحفص النيسابورى (ت٢٧٠هـ) عن التوبة، فقال: "توبة الكذابين على أطراف ألسنتهم يعنى قوله: "استغفر الله"[١٠] واسأل نفسى والآخرين لماذا نغفل عن التوبة؟ على الرغم من وجوبها وفرضها على الإنسان، فهل السبب أن التوبة من عند الله؟ يختار بها من عباده أو يتفضل بها على من يشاء من عباده؟ لهذا السبب كان يحيى بن معاذ (ت٢٥٨هـ) فى دعائه: "إلهى، لا أقوى على شروط التوبة، فأغفر لى بلا توبة"[١١] وعلى نفس الطريق يقول أبوحفص النيسابورى عندما سئل عن التوبة: "ليس للعبد فى التوبة شئ، لأن التوبة إليه، لا منه"[١٢]. وكلنا نعلم أن اختيار الله لنا بمثابة رحمة وهداية، فهل عدم قدرتنا على التوبة دليل على أننا فى مهب الريح؟! أو أننا فى حالة ضياع إيمانى بالفعل ونحن لا ندرى؟! أم نعتبر التوبة قيمة أخلاقية عليا ضاعت كما ضاعت كل القيم الأخلاقية فى زمن مسخت فيه الشخصية العربية؟!

وربما أقابل من يرى أن هذا الكلام يحمل الطابع الخطابى أو الدعوى، وأنت كاتب فى تاريخ الفلسفة الإسلامية، لهذا رغم اعترافى واحترامى للجانب الدعوى أو الخطابى، إلا أننى أرى مقام التوبة له أهمية أخرى قصوى تتلخص: فى أن هناك ثلاثة أصناف من الباحثين الأول مستعرب منقاد والآخر لا يملك إلا العويل والصراخ والثالث حائر يقف بين الأول والثانى. فإن العالم

(٨) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، مصدر سابق، ص٢٣٥.

(٩) العطار، تذكرة الأولياء، جـ١، مصدر سابق، ص١٠٦.

(١٠) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٩٩.

(١١) السلمى، طبقات الصوفية، دار الكتاب العربى، ط١، القاهرة، ١٩٥٣م، ص١١٠.

(١٢) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٩٩، وكذلك فى المناوى، الكواكب الدرية، جـ١، تحقيق د/ محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٦٨٧.

المعاصر منذ أكثر من نصف قرن، والعالم الغربى بالذات، وعن طريق المستشرقين والمستعربين يقدم لنا دراسات واسعة عن الزهد أو التصوف فى الإسلام والشرق. نأخذها عن طيب خاطر، فنسلم بها، أو نحاول أحياناً أن نثور على ما يخرج بهذه الدراسات عن المنهج الإسلامى دون تقديم أدلة أو أبحاث دقيقة تتصدى لهذه الآراء. وأصبحنا فى الواقع إما شارحين معجبين، أو مقلدين مستسلمين، أو حائرين بين ما يقدم لنا، وبين منهج ديننا حسب إيماننا به لا حسب روحه الحقيقى فى ذاته وموضوعه منا.

ومن تلك الأفكار الحاقدة والمتعصبة ضد الإسلام، جعل جزء من أهم تراثه وهو التصوف الإسلامى مصدره المسيحية واليهودية والبوذية والمجوسية وحتى الأفلاطونية المحدثة. والسؤال هنا هل لدى الحكيم فى البوذية أو الأحبار والرهبان لديهم مقام يسمى مقام التوبة الذى يعتبر من أهم مقامات الطريق لدى السالكين الطائرين بنفوسهم إلى خالقهم الذين أكدوا على أن من عَرف الدنيا زهد فيها، ومن عرف الآخرة رغب فيها، ومن عرف الله آثر رضاه.(١٣) وكما قال أحمد بن أبى الحوارى (ت٢٣٠هـ): "من عمل عملاً بلا اتباع سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فباطل عمله".(١٤) وقول أبوالعباس بن عطاء الآدمى (ت٣٠٩هـ) "من ألزم نفسه أداب الشريعة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب –صلى الله عليه وسلم– فى أوامره؛ وأفعاله، وأخلاقه".(١٥)

وغيرهم، فكيف لهؤلاء الذين يمثلون أقطاب الصوفية أن يكونوا تابعين، لبوذا، وزرادشت ومانى وغيرهم؟!.

وهؤلاء المستعربين أو المستشرقين ماكرون هدامون لغير عقائدهم وأديانهم وآرائهم، ناسبون التصوف لغير أهله ولا يعبرون عن البيئة التى نشأ فيها. لم يكن غاية المستشرقين اكتناه حقيقة

---

(١٣) ابن القيم، مدارج السالكين، مصدر سابق، ص٢٢٠.

(١٤) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٣٠.

(١٥) السلمى، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص٢٦٨، وكذلك فى الرسالة، للقشيرى، ص٤٥.

هذه الحياة بقدر ما كانت غايتهم سلبها عن جوهرها الحقيقى –الإسلام–. فانتهت أبحاثهم إلى أن الحياة الروحية فى الإسلام ترتبط بكل شئ ما عدا الإسلام. أثارتها اليهودية والمسيحية، كما أقامتها البوذية واليوجا أو الجينا الهندى والأديان الفارسية، زرادشت ومانى، وأثرت فيها الصابئة والحرنانية، وصبغتها الأفلاطونية المحدثة اليونانية. وهكذا انتهت أبحاث هؤلاء المستشرقين –إلا فيما ندر– إلى أن كل طارئ على حياة العباد والزهاد والصوفية، وكل عارض على حلقاتهم المتعددة إنما هو الجوهر.

التوبة هى الجوهر ... أقصد الإسلام، فلم يكن للأسف محل إهتمام من علمائنا ولا من المستشرقين الذين زروا الرماد فى عيوننا وألهونا سنين وأعوام عجاف، فلم يهتموا بشئ ذى بال فى حياتهم، وفى نمط سلوكهم ... وفى تراثهم العارم الملئ ... وكذب هؤلاء المستشرقين، أو بمعنى أخف ... كانت أبحاثهم تعبيراً عن ذاتهم هم، أو تحقيقاً لأفكار سابقة. أرادوا صبغ الحياة الزهدية والصوفية فى الإسلام بها ... وكان رائد هؤلاء الكاذبين جولدتسيهر ... يهودى مجرى متعصب(١٦)، رأى أن يربط زهاد الإسلام وصوفيتهم بكل شئ غير إسلامى، فالزهد إنما هو انعكاس للديرية المسيحية، وأوائل الصوفية أو الزهاد الضاربين نحو التصوف إنما هم صورة بوذا ... ثم إن التصوف إنما هو مزيج من المسيحية واليهودية والفلسفة اليونانية ... ثم ظهر نيكلسون ... وتابع هذا المنهج السقيم ... وربط التصوف بالأفلاطونية المحدثة من ناحية، وصور المسيحية المختلفة من ناحية أخرى.

وهذا المنهج الأعور الأعرج السقيم، لم ينظر أصحابه إلا بعين واحدة، بعين ملئت بالحقد على الإسلام وأصالته كدين وكفكر ... كانت أبحاث هؤلاء بالرغم من صوغها فى صورة البحث العلمى البحت وادعائها أنها أبحاث نزيهة فى تاريخ الأديان المقارن ... إنما هى بقايا من علم الدفاع عن الدين المسيحى الذى بدأ فى العصور الوسطى المسيحية وكانت غايته إقامة حرب صليبية ثقافية، بجانب الحرب الصليبية العسكرية.

(١٦) د/ النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، جـ٣، دار المعارف، ط١٠، القاهرة، ٢٠١٨م، ص١٦.

ثانياً: إشكالية البحث

أما إشكالية البحث فهى غنية ومتشابكة ومتداخلة لأهمية تلك المسألة، فكان التساؤل الأول هو: ما المقصود بالتوبة؟ وما علاقة التوبة بالذنب أو المعصية؟ وما هى علامات التوبة المقبولة؟ وهل تصح التوبة من ذنب دون آخر، أم تتوقف صحتها على التعميم ؟ وهل يجوز تأخير التوبة ؟ وهل تصح التوبة من ذنب، مع الإصرار على غيره ؟ أى هل تتجزأ التوبة كالمعصية؟ وهل يشترط فى صحتها أن لا يعود إلى الذنب أبداً، أم ليس ذلك بشرط؟ والسؤال الأهم: وهو هل تصح توبة العاصى الذى حيل بينه وبين أسباب المعصية، وعجز عنها. بحيث يتعذر وقوعها منه؟.

ثالثاً: المناهج المستخدمة

لهذا سيكون ردى بعيداً عن الصراخ والعويل والاعجاب الأعمى، وإنما سيكون ردى بأسلوب منهجى وعلمى مستخدماً ومتسلحاً بعلم الكلام الإسلامى وجعله أكثر ذوقية وأكثر رقة وعذوبة وفى نفس الوقت يمتلك الحجة والدليل والبرهان، ومن ثم ليس غريباً إن اعتمد على المنهج التاريخى السليم الذى يعول على الأصول الثابتة. فيزنها بميزانها الصحيح، وينقدها النقد النزيه ويحذر الوضع والاختلاف والغلو والتعصب، والحزبية العلمية. كما أن المنهج التاريخى يذكر الإنسان العربى المعاصر بكيفية توبة الصالحين من أباءنا وأجدادنا وأهميتها عندهم. ثم بعد ذلك أعول على المنهج التحليلى والتركيبى لمحاولة رسم صورة معاصرة عن التوبة تناسب أفراد وعقليات هذا الزمان. وأخيراً المنهج النقدى حتى لا أبتعد كثيراً عن روح الفلسفة، روح النقد الإيجابى.

رابعاً: خطة البحث

أما خطة البحث، فإن البحث يتكون من مقدمة وخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع وثلاثة مباحث. **المبحث الأول: تعريف التوبة ومفهومها عند الصوفية** وتطرقنا فيه لثلاث مطالب وهم: المطلب الأول: تعريف التوبة، المطلب الثانى: التوبة بين النظر والتطبيق، المطلب الثالث: الذنب بين التذكر والنسيان، **المبحث الثانى: التوبة فى القرآن والسنة**، وفيه مطلبان، المطلب

الأول: التوبة فرض، المطلب الثانى: أقسام التوبة. **أما المبحث الثالث: شروط وفضائل التوبة،** وفيه مطلبان وهما: المطلب الأول: شروط قبول التوبة، المطلب الثانى: فضائل التوبة.

نعوذ بالله من رين القلوب، وهوى النفوس الذين يصدان عن التوبة النصوح وعن معرفة الحق واتباعه. وعلى أن نعتذر من تقصير إن كان، ونتنصل من اغفال إن عرض، لما قد شاب خواطرنا، وغمر قلوبنا، من الخطأ والنسيان.

المبحث الأول : تعريف التوبة ومفهومها عند الصوفية

المطلب الأول: تعريف التوبة

التوبة بالفتح وسكون الواو فى اللغة الرجوع وفى الشرع الندم على معصية من حيث هى معصية مع عزم أن لا يعود إليها إذا قدر عليها.(١٧) فإن التوبة: الرجوع عن المعصية إلى الطاعة، وعن النفس إلى الحق. فهم يتوبون عن الجرم، وجرم العباد مخالفة الأمر، وجرم الأحبة مخالفة الإرادة، وجرم العباد: المعصية، وجرم الأحبة: رؤية وجودهم.(١٨)

ومن ثم فإن للتوبة توصيف فى اللغة بمعنى الرجوع، على نحو ما يقال "تاب" أى "رجع" أما الرجوع فى توصيف الشرع الانتهاء عما نهى الله عنه إلى الطيب من أمر الله تعالى وذلك هو حقيقة التوبة. فإن التوبة هى رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم.(١٩) فإن حقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يُحب، وترك ما يكره. فهى رجوع من مكروه إلى محبوب. فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها. والرجوع عن المكروه الجزء الآخر. ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل

---

(١٧) التهانوى، كشاف إصطلاحات الفنون، جـ١، دار صادر، بيروت، د.ت، ص١٩٢.

(١٨) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، ترجمة د/ اسعاد عبدالهادى قنديل، تقديم د/ بديع جمعه، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٦٣٦.

(١٩) ابن القيم، مدارج السالكين، ط١، مصدر سابق، ص٢٣٤.

المـأمور وتـرك المحظـور بهـا، فقـال: "وتُوبُـوا إِلَـى اللَّـهِ جَمِيعـاً أَيُّهَـا المُؤْمِنُـونَ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُـونَ" [النور/٣١]. فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحاً إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

وهذا عبر عنه مشايخ الصوفية، فمنهم القاسم بن عثمان الجوعى (ت٢٤٨هـ) قال: "التوبة رد المظالم، وترك المعاصى، وطلب الحلال، وأداء الفرائض".[٢٠] فهى رجوع عن كل ذنب، لدرجة أن ذو النون المصرى (ت٢٤٥هـ) يرى أن الرجوع لا يكون إلا لله، فقال: "حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتى لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك كما أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز: "ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إلاَّ إلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا" [التوبة/١١٨].[٢١] فالتائبون هم "التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ والْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ" [التوبة/١١٢] فحفظ حدود الله: جزء التوبة. والتوبة هى مجموع هذه الأمور. وإنما سمى تائباً: لرجوعه إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته. وعلى العبد أن يتقى الله فى سر أمره وعلانيته، ويستغفر الله ويتوب إليه من ذنوبه، فإنه يقبل التوبة عن عباده، بذلك وصف نفسه، جل ثناؤه، فقال: "وإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى" [طه/٨٢]، ثم دعا عباده إلـى التوبـة، ثـم أخبـرهم أنـه يقبلهـا، فقـال: "فَاسْـتَغْفِرُوهُ ثُـمَّ تُوبُـوا إِلَيْـهِ إنَّ رَبِّـي قَرِيـبٌ مُّجِيـبٌ" [هود/٦١]، فمن تاب إلى الله قبل توبته وإن كانت ذنوبه عدد الرمل وأكثر من ذلك، لأنه كريم وهو بعباده رؤف رحيم، يقبل التوبة، ويقبل العثرة، ويقبل المعذرة، ويغفر الخطيئة إذا صحت من العبد التوبة، وقال جل ثناؤه: "والَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهاً آخَرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ ولا يَزْنُونَ ومَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (*) يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ ويَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (*) إلاَّ مَن تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً" [الفرقان: ٦٨/٦٩/٧٠]، فمن تاب من ذنبه قبل الله توبته وأحبه، كذلك قال، جل ثناءه: "إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ" [البقرة/٢٢٢]، يعنى المتطهر من الذنوب، فمن

---

(٢٠) ابن ملقن، طبقات الأولياء، تحقيق د/ نور الدين شريبة، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٣٩٤.

(٢١) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٩٩.

أحبه الله لم يعذبه وكان من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وكان من أهل الجنة.[٢٢]

ونجد مشايخ التصوف الإسلامى قد ربطوا بين التعريف اللغوى للتوبة ومقاصد الشرع، وهنا أضحت التوبة مقاماً عملياً بإمتياز وعبرت خير تعبير عن أخلاق وسلوكيات الإنسان المسلم، فظهر التصوف الإسلامى رائعاً نقياً من الشوائب والسفاهات التى ألحقها به المستشرقون. فقيل التوبة هى كسب الإيمان وأصول الخيرات وقيل: الأعمال الصالحة هى فريد الإيمان وعلامة الإيقان.[٢٣] وسئل سهل بن عبدالله (ت ٢٨٣ هـ) متى يكون التائب حبيب الله؟ فقال: يكون حبيب الله عندما تصدق عليه تلك الآية: " التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ والْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ" [التوبة/١١٢]، ثم قال سهل: "الحبيب لا يدخل فى شئ لا يحبه الحبيب". وقال: "لا تصح التوبة حتى يتوب من السيئات". وكان يقول: "التوبة من أفضل الأعمال لأن الأعمال لا تصح إلا بها، ولا تصح التوبة إلا بترك كثير من الحلال مخافة أن يخرجهم إلى غيره". فإن التوبة مفتاح الشرع وتصديق خبر النبوة". فقال أبوالحسين الوراق النيسابورى (ت قبل ٣٢٠هـ): "لا يصل العبد إلى الله إلا بالله، وبموافقة حبيبه –صلى الله عليه وسلم– فى شرائعه. ومن جعل الطريق إلى الوصول فى غير الاقتداء يضل، من حيث يظن أنه مهتد".[٢٤]

وبالتالى فليس لأحد أن يظن إستغناءه عن التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب بل كل أحد محتاج إلى ذلك دائماً. قال الله تبارك وتعالى: "وحَمَلَهَا الإنسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (*) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ المُنَافِقِينَ والْمُنَافِقَاتِ والْمُشْرِكِينَ والْمُشْرِكَاتِ ويَتُوبَ اللَّهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً" [الأحزاب: ٧٢، ٧٣]. فالإنسان المستغنى عن التوبة منافق جاهل، أما غاية

---

(٢٢) القاسم الرسى، كتاب أصول العدل والتوحيد، ضمن كتاب رسائل العدل والتوحيد، تحقيق د/ محمد عمارة، مصدر سابق، ص٣٤٧.

(٢٣) المكى، قوت القلوب، مصدر سابق، ص٢٩٦.

(٢٤) السلمى، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص٢٩٩.

المؤمنين والمؤمنات العمل الصالح والتوبة عن بينة، وقد أخبر الله تعالى فى كتابه بتوبة عباده الصالحين ومغفرته لهم.(٢٥) قال تعالى: "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ولَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (*) إلاَّ الَذِينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا واعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وأَخْلَصُوا دِينَهُمْ " [النساء: ١٤٥، ١٤٦] لأنهم كانوا يعتصمون بالناس وبالأموال وكانوا يراءون بالأعمال فلذلك اشترط عليهم الاعتصام بالله والإخلاص لله تعالى فينبغى أن تكون توبة كل عبد على ضد معصيته قليلاً فقليل أو كثيراً فكثير، ويكون التائب على ضد ما كان أفسد، ليكون كما قال الله تعالى: "إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ" [الأعراف: ١٧٠]، ولا يكون العبد تائباً حتى يعمل الصالحات ثم يدخل فى الصالحين. وقد قال الله تعالى: "وهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ" [الأعراف:١٩٦] وهذا وصف للتواب وهو المتحقق بالتوبة الحبيب لله تعالى كما قال سبحانه وتعالى: "يُحِبُّ التَّوَّابِينَ" [البقرة: ٢٢٢] أى يتولى الراجعين إليه من أهوائهم، المتطهرين له من المكاره. (٢٦)

المطلب الثانى : التوبة بين النظر والتطبيق

إن التوبة فى الإسلام عملية توضح وترسم رسوماً تبين فيها الصالح من المنافق وهذا أول استنتاج من تعريف التوبة. فإن من قال: إذا أحب الله عبداً لم تضرة الذنوب ومعناه ليس إسقاط التكاليف كما يظن بعض المدعين، بل معنى ذلك أنه إذا أحب عبداً ألهمه التوبة والاستغفار فلم يصر على الذنوب ومن ظن ان الذنوب لا تضر من أصر عليها فهو ضال مخالف للكتاب والسنة، وإجماع السلف والأئمة، بل "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه (*) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه".[الزلزلة:٧، ٨]

(٢٥) ابن تيمية، الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تحقيق مصطفى العدوى، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت، ص١٣١.

(٢٦) المكى، قوت القلوب، مصدر سابق، ص٣٢١.

وهذا واضح فى أقوال مشايخ الصوفية، فإن التوبة باللسان هى التوبة الكاذبة غير المقبولة، قال ذو النون: "الاستغفار من غير إقلاع توبة الكاذبين".(٢٧) أما توبة المؤمنين فهى ملازمة لهم، فقد قال سهل بن عبدالله: "قد أيس عُلماؤنا من ثلاث: لزوم التوبة، ومعانقة السنة، وترك أذى الناس".(٢٨) فإن التوبة هى صفة المؤمنين، بل قال الجنيد (ت ٢٩٧ هـ): "ما قلت قط، اللهم إنى أسألك التوبة، ولكنى أقول: أسألك شهوة التوبة. فإن التوبة: ترك التسويف. فقد قال أبوعثمان المغربى (ت ٣٧٣هـ): العاصى خير من المدعى، لأن العاصى – أبداً – يطلب طريق توبته، والمدعى يتخبط أبداً فى حبال دعواه".(٢٩)

فإن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله، وأكرمها عليه. فإنه سبحانه يحب التوابين. ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه. فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذى يوجب وقوع محبوبه من التوبة، وزيادة محبته لعبده، فإن للتائبين عنده محبة خاصة. سئل أبوعبدالله بن الجلاء (ت ٣٠٦هـ): "عن المحبة، فقال: "مالى وللمحبة!. أنا أريد أن أتعلم التوبة".(٣٠) التوبة عند الصوفية هى باب العمل، فهل هى عمل بدون علم؟! رفض الصوفية أن تكون التوبة عمل فقط بدون علم أو علم فقط بدون عمل، فسئل أبوعبدالله البلخى (ت ٣١٩هـ): ما علامة الشقاوة؟ فقال: ثلاثة أشياء: يرزق العلم ويحرم العمل، ويرزق العمل ويحرم الإخلاص، ويرزق صحبة الصالحين ولا يحترم لهم".(٣١) فإرادة تقويم النفس وإرجاعها عن الذنب والمعاصى هى العلم الحقيقى عند الصوفية والدليل على ذلك: إن حقيقة التوبة: "هى كف النفس عن الفعل الذى هو متعلق النهى"(٣٢) والكف إنما يكون عن أمر مقدور. وأما المحال: فلا

(٢٧) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٩٩.

(٢٨) المناوى، الكواكب الدرية، جـ١، مصدر سابق، ص٦٣٨.

(٢٩) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٩٨.

(٣٠) جامى، نفحات الأنس، تحقيق، د/ محمد أديب الجادر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص٣٧٢.

(٣١) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٣٩، وكذلك نفحات الأنس، ص٣٩٢.

(٣٢) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، مصدر سابق، ص٢١٩.

يعقل كف النفس عنه. ولأن التوبة هى الإقلاع عن الذنب. وهذا لا يتصور منه الإيقاع حتى يتأتى منه الإقلاع. وأيضاً لأن الذنب عزم جازم على فعل المحرم، يقترن به فعله المقدور. والتوبة منه: عزم جازم على ترك المقدور، يقترن به الترك. والعزم على غير المقدور محال. والترك فى حق هذا ضرورى، لا عزم غير مقدور.

فإن الهمة والإرادة هى أصل العلم عند الصوفية وبها يتوج العمل بالنجاح والفلاح والقبول من الله سبحانه وتعالى، فإن التوبة عند الصوفية علم وعمل فهذا أبوبكر بن حامد الترمذى يقول: "لم يجد أحد تمام الهمة بأوصافها إلا أهل التوبة والمحبة؛ وإنما وجدوا ذلك من اتباع السنة، ومجانبة البدعة؛ فإن رسول الله كان أعلى الخلق همة (إرادة) وأقربهم زلفة (أكثرهم توبة)".(٣٣) فإن مقام التوبة يستحضر ويعاين دائماً الإرادة، فالإنسان الغافل عن التوبة مسلوب الإرادة ويعيش فى جهل الشهوة وغفلة ما يطلب. لذلك قال أبوالعباس بن مسروق (ت ٢٩٩هـ): "شجرة المعرفة تسقى بماء الفكرة. وشجرة الغفلة تسقى بماء الجهل. وشجرة التوبة تسقى بماء الندامة...". (٣٤) فإن التوبة المقبولة ما تكون مقرونة بالعلم والعمل لدرجة أن يوسف بن أسباط قال: "للتوبة عشرة مقامات اولها: البعد عن الجاهلين، وترك الأباطيل، والإعراض عن المنكرات، والاشتغال بالمستحبات، والتعجيل فى الخيرات، وتصحيح التوبة، واللزوم عليها، ورد المظالم، واغتنام الأوقات، وتصفية الأوقات".(٣٥)

وبذلك يصل التائب إلى مرحلة اليقين والكمال فى توبته، فإن التائب لا يقله شئ يكون قلبه معلقاً بالعرش حتى يفارق النفس ولا عيش له إلا الضرورة للقوام ويغتم على ما مضى والجد فى الأمر ومباينة النهى فيما يجئ ولا يتم له ذلك إلا بإستعماله علم اليقين فى كل شئ. ثم المتابعة لأعمال الصالحات ليكون ممن قال الله تعالى: "وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ"

---

(٣٣) السلمى، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص٢٨٢.

(٣٤) السلمى، حكم منتخبة، ضمن مجموعة (آثار أبوعبدالرحمن سلمى)، مؤسسة مطالعات إسلامى، طهران، ١٣٨٨هـ، ص١٦٣.

(٣٥) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٦١٥.

[الرعد: ٢٢] أى يدفعون ما سلف من السيئات بما يعملون من الحسنات. قال أبوسليمان الدارنى (ت ٢١٥هـ): "لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على فوت ما مضى منه فى غير الطاعة لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات فكيف بمن يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله".(٣٦)

والسؤال هنا: هل الصوفية أهل وجدان بدون عقل كما يدعى البعض؟ هل العقل عند الصوفية منبوذ؟ هل هم أهل دروشة ومغيبون عن العالم والخلق؟ اعتقد أنهم ليسوا أهل علم فقط وإنما هم أهل علم وعمل لذلك فهم أهل اليقين والحقيقة والمنطق. إذن هناك شبه إجماع عند الصوفية على تعريف التوبة بأنها: لا تحصل إلا بثلاثة أشياء: الندم على ما مضى من الذنوب، والعزم على أن لا يعود إليها أبداً، ثم أداء الحقوق من المظالم إلى أصحابها".(٣٧)

إذن مدار التوبة عند الصوفية الرجوع عن الذنب والاستغفار عن ذلك الذنب فى حال إرتكابه. فسئل يحيى بن معاذ: كيف يصنع التائب؟ فقال: "هو من عمره بين يومين، يوم مضى ويوم بقى، فيصلهما بثلاث: أما ما مضى فبالندم والاستغفار، أما ما بقى فبترك التخليط وأهله ولزوم المريدين ومجالسة الذاكرين، والثالثة لزوم تصفية الغذاء والاستمرار على العمل".(٣٨) فالتوبة إستغفار عن الذنب والمعصية. قال تعالى: "اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ" [هود: ٣] وقال تعالى: "أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ ويَسْتَغْفِرُونَهُ" [المائدة: ٧٤] فابتداء التوبة بالاستغفار، وعقب الاستغفار بالتوبة، فالاستغفار مع الذنب سؤال الستر من الله تعالى، ومغفرة الله لعبده فى حال ذنبه ستره عليه وحلمه عنه. والاستغفار بعد التوبة وهو سؤال العبد مولاه العفو عن المؤاخذة، ومغفرة الله تعالى لعبده بعد التوبة تكفيره لسيئاته، وتجاوزه عنه بالعفو الكريم وهو تبديل السيئات حسنات.

---

(٣٦) المكى، قوت القلوب، مصدر سابق، ص٢٩٤.
(٣٧) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٤٥١.
(٣٨) المكى، قوت القلوب، مصدر سابق، ص٣٠٠.

وقد عظم مشايخ الصوفية الاستغفار والرجوع عن الذنب. وقد كان من المبتدئين والتائبين من هذه الطائفة من تابوا وحدثت لهم فترة وعادوا إلى الفساد، ثم رجعوا إلى أعتاب الله بحكم تنبيه، حتى أن واحداً من المشايخ قال: تبت سبعين مرة ثم رجعت إلى المعصية، حتى وجدت الاستقامة فى المرة الحادية والسبعين. وقال أبوعمرو بن نجيد: تبت أول مرة فى مجلس أبى عثمان الحيرى، وبقيت على ذلك مدة، ثم ظهر فى قلبى داع للمعصية فتابعته، وأعرضت عن صحبة ذلك الشيخ. وكنت حينما أراه من بعيد أهرب من الخجل حتى لا يرانى. والتقيت به يوماً فجأة فقال لى: يا بنى! لا تصاحب أعداءك إلا أن تكون معصوماً، لأن العدو يرى عيبك. وعندما تكون معيوباً يفرح العدو، وحين تكون معصوماً يحزن. وإذا لزمك أن تفعل معصية، فتعال إلينا لنحمل بلاءك، حتى لا تكون كما يهوى العدو. قال: فسئم قلبى المعصية، وصحت توبتى".(٣٩)

إذن العودة عن الذنب والاستغفار مخ التوبة، وهذا المعنى اتفقت عليه المعتزلة مع مشايخ الصوفية وأهل السنة، فقال القاضى(٤٠) عبدالجبار: "والتوبة، هو أن يندم على ما فعله من القبيح لقبحه، ويعزم على أن لا يعود إلى أمثاله فى القبح". فصورة التوبة عند المعتزلة، أن يندم على القبيح لقبحه ويعزم على أن لا يعود إلى أمثاله فى القبح. فإن التوبة إن كانت توبة عن القبيح فإن صورته أن يندم على القبح لقبحه ويعزم على أن لا يعود إلى أمثاله فى القبح، وإن كانت توبة عن الإخلال بالواجب فإن صورته أن يندم على الإخلال به لكونه إخلالاً بالواجب ويعزم على أن لا يعود إلى أمثاله فى ذلك.

وهنا يظهر الخلاف الجلى بين مشايخ الصوفية والمعتزلة، لأن المعتزلة ترى أن القبيح والندم عنه هو أمر معقول ويجده كل أحد من نفسه، فلا يحتاج إلى الشرع. قيل: الندم على ما اقترفه

(٣٩) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٤٠.

(٤٠) القاضى عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، حققه وقدم له د/ عبدالكريم عثمان، مكتب وهبة، ط٣، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٣٣١.

من القبيح لقبحه، والعزم على أن لا يفعل مثله فى القبح، لأنه لو ندم عليه لا لقبحه لكن لأنه أضر بجسمه لم يكن تائباً. (٤١) ويتحجج القاضى(٤٢) بأن المكلف لا تخلو حاله من أمور ثلاثة: إما أن تكون طاعاته أكثر من معاصيه، أو معاصيه أكثر من طاعاته، أو يكونا متساويين. فإذا كانت طاعاته أكثر من معاصيه كانت معصيته صغيرة فلا يجب التوبة عنها عقلاً وإنما يجب سمعاً، خلافاً لما يقوله أبوعلى الجبائى فإن مذهبه أن التوبة عن الصغائر تجب عقلاً وسمعاً، وقال أبوهاشم الجبائى: بأن لا تجب إلا سمعاً. والذى يدل على صحته أن التوبة إنما تجب لدفع الضرر عن النفس ولا ضرر فى الصغيرة فلا تجب التوبة عنها. يبين ذلك، أنه لا تأثير لها إلا فى تقليل الثواب، ولا ضرر فى ذلك.

المعتزلة يتحدثون عن التائب وكأنه إنسان آلى ليس له قلب، فكيف يكون الندم بالعقل معروفاً؟! ولا أجد أفضل من كلام أبوسليمان الدارنى (ت ٢١٥هـ) فيقول: "ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة".(٤٣)

وما أفضل من كلام النورى (ت ٢٩٥هـ): "من رأيته يدعى مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربن منه".(٤٤) فإن التوبة عند الصوفية لها أسباباً وترتيباً وأقساماً فأول ذلك: إنتباه القلب عن رقدة الغفلة، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة. فإذا فكر بقلبه فى سوء ما يصنعه، وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال، سنح فى قلبه إرادة التوبة، والإقلاع عن قبيح المعاملات فيمده الحق، سبحانه وتعالى بتصحيح العزيمة، والأخذ فى جميل الروجعى، والتأهب لأسباب التوبة: فأول ذلك: هجران إخوان السوء؟ فإنهم هم الذين يحملونه على رد هذا القصد ويشوشون عليه صحة هذا العزم.

---

(٤١) القاضى عبدالجبار، المختصر فى أصول الدين، مصدر سابق، ص٢٢٤.

(٤٢) القاضى عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، مصدر سابق، ص٧٨٩.

(٤٣) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٢٧.

(٤٤) نفس المصدر السابق، ص٣٧.

كما أن مشايخ الصوفية لا ترى ذنباً كبيراً أو صغيراً أو معصية كبيرة أو صغيرة، فمن علامة صدق التوبة رقة القلب وغزارة الدمعة. وفى الخبر: جالسوا التوابين فإنهم أرق شئ أفئدة، ومن التحقيق بالتوبة أن يستعظم ذنوبه فإنه يقال: إن الذنب كلما استعظمه العبد صغر عند الله تعالى. يقال إن استصغار الذنب كبيرة، كما جاء فى الخبر: المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره.(٤٥)

فإن من علامات اتهام التوبة: طمأنينته ووثوقه بعقله ومن نفسه بأنه قد تاب، حتى كأنه قد أعطى منشوراً بالأمان. فهذا من علامات التهمة، يؤدى إلى جمود العين، واستمرار الغفلة، وأن لا يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة لم تكن له قبل الذنب.(٤٦) وهنا يخالف تماماً القاضى(٤٧) هذه الآراء ويرى أن الندم هو القدر الكاف لتحقيق التوبة التى تزيل العقاب تماماً، لأن نظير التوبة من الشاهد إنما هو الاعتذار، ومعلوم أن أحدنا لو أساء إلى غيره ثم اعتذر إليه اعتزاراً صحيحاً فإنه لا يستحق بعد ذلك الذم على الإساءة. ومعتزلة بغداد تخالف ذلك وترى أن التوبة لا تأثير لها فى إسقاط العقاب وإنما الله يتفضل بإسقاطه عند التوبة. وهذا المعنى نجده ساطعاً عند رابعة العدوية قالت: "إن تبت أنا – يعنى بلا توفيق الله تعالى – فأنا محتاجة إلى التوبة مرة ثانية".(٤٨) وقال رجل لرابعة: "إنى أكثرت الذنوب والمعاصى، فلو تبت هل يتوب على؟ فقالت: لا بل لو تاب عليك لتبت". (٤٩) ومعنى ذلك أن التوبة لا تتم بالمجهود بقدر ما تتم بالفضل من الله. فهى كانت لا تثق فى قدرتها على الظفر بالتوبة لمجرد استغفارها وإقلاعها عن ذنوبها، بل كان لا بد لها من رضا الله، فهو وحده الذى يتوب على الناس المخطئين؛ فلو لم يتب، لم تتحقق

---

(٤٥) المكى، قوت القلوب، مصدر سابق، ص٣٠٠.

(٤٦) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، مصدر سابق، ص٢٢٢.

(٤٧) القاضى عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، مصدر سابق، ص٧١٩.

(٤٨) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص١٠٦.

(٤٩) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص١٠٠.

لديهم التوبة.[٥٠] وهذا الوصف للتوبة يحمل طابع سلبى، يزيد من القلق والخوف على نتائج الأعمال. وبالتالى لا ندرى مطلقاً ما إذا كانت التوبة مقبولة عند الله أو غير مقبولة، وهذا يعطى استمرارية للتوبة وهذا يمثل الجانب الإيجابى وهو الاستمرار فى الاستغفار دائماً، لأن التوبة ليست حالة ثبات يمكن بلوغها مرة واحدة، بل هى فى حركة مستمرة.

فإن كثير من مشايخ الصوفية قد أكدوا على أن التوبة لا تنال ببذل المجهود، وإنما هبة ومنحة صحيح وضعوا لها شروط ولكن كانت بمثابة عون ودليل لمن فى قلبه خير وأمل فكانت منحة التوبة بمثابة يد المساعدة والعون من القادر الخالق، فقال مظفر القرميسينى: "أفضل ما يلقى به العبد ربه نصيحة من قلبه، وتوبة من ربه".[٥١] بل أحياناً تكون التوبة هى النعمة الإلهية الملتبسه بأنفاس الرجل الصالح، فتكون عن الذنب والطاعة على السواء، فيقول محفوظ بن محمود النيسابورى (ت ٣٠٣هـ أو ٣٠٤هـ): "التائب الذى يتوب من غفلاته وطاعاته".[٥٢]

ويعارض كل ذلك وأكثر القاضى عبدالجبار[٥٣] ويرى أن التوبة هى التى تسقط العقوبة، لأن التوبة عنده هى بذل المجهود فى تلافى ما وقع منه، وهذا لا يختص ببعض المعاصى دون بعض، فإن التوبة تسقط عقوبة سائر المعاصى، ولهذا تسقط عقوبة الكفر مع أنه أعظم حالاً من القتل. وفى هذا القول أيضاً مخالفة صريحة لأهل السنة، لأن الراجح عند أهل السنة أن التوبة تتبعض. فالقاضى يرى أن التوبة فعل واحد، بمعنى أن التائب عن الكفر ولم يتب عن القتل، فتوبته عن الكفر غير صحيحة. والتائب عن الزنا ولم يتب عن الخمر، فتوبته غير صحيحة، فمرة يحاول أن يغازل موقف أهل السنة، فيقول: "أن من أعتقد فى بعض الكبائر أنها حسنة وتاب عن غيرها فإن توبته عنها تصح، غير أنها تقع محبطة فى جنب هذا الاعتقاد، وذلك

---

(٥٠) د/ عبدالرحمن بدوى، شهيدة العشق الإلهى (رابعة العدوية)، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢، ص٢٢.

(٥١) السلمى، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص٣٩٧.

(٥٢) نفس المصدر السابق، ص٢٧٣.

(٥٣) القاضى عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، مصدر سابق، ص٧٩١.

كتوبة الخارجى عن الزنا وشرب الخمر مع اعتقاده حسن القتل".[٥٤] ودليله على ذلك أنه يعتبر نظير التوبة فى الشاهد الاعتذار، فيرى أن الجانى إذا اعتذر إلى المجنى عليه اعتذاراً صحيحاً فإنه ليس له أن يذمه بعد ذلك. لا لوجه سوى أنه اعتذر إليه، وهذا يدل على أن الاعتذار هو المسقط للذم الذى استحقه على الجناية، وإذا ثبت ذلك فى الاعتذار فكذلك فى التوبة.

والسؤال الذى يوجه إلى القاضى، إذا كان الاعتذار بدون اعتراف، فهل تحق وتصح التوبة؟ فهناك اعتذار ينافى الاعتراف وهو الذى يؤكده الاصرار على الذنب، فإن المعتذر والمستغفر من الذنب وهو مصّر عليه كالمستهزئ بآيات الله عز وجل وقد كان أحد العلماء يقول: "أستغفر الله من قولى استغفر الله. وفى الخبر: الاستغفار باللسان من غير توبة وندم بالقلب توبة الكذابين.[٥٥] والمصر على مثل ما تاب منه لم يراجع الطاعة ولم يتب، فاسم المعصية لا يفارقه. فلا تصح توبته. أما الاعتذار المقبول فهو الاعتذار الذى يقرر الاعتراف بل يلح فى الاعتراف، فذلك من تمام التوبة.

قال إبراهيم بن أدهم: "التوبة الرجوع إلى الله بصفاء السر"[٥٦] وكذلك قال منصور بن عمار (ت٢٢٥هـ): "وتاب يوماً شاب على يده، ثم نقض التوبة، وضل عن الطريق، فقال الشيخ: "ما أعرف سبباً لنقض توبتك إلا أنك وجدت الأصحاب قليلاً، فحصلت لك وحشة، فمللت ونقضت التوبة".[٥٧] فإن الإعتذار الظاهرى الشكلى أو الإعتذار بمفهوم بعض علماء المعتزلة، وكأنه مسألة رياضية، "تعتذر فيجب" وهذا لا يليق على الله ومرفوض رفضاً باتاً وقطعياً من مشايخ الصوفية، فلا بد أن يكون اعتذار يخرج من صميم الباطن ويترجم فى دوام السلوك. قال محمد بن على الترمذى (ت٢٨٦ هـ) عندما سئل عن يقين التوبة: " إستقرار القلب على الله تعالى،

(٥٤) نفس المصدر السابق، ص٧٩٢.

(٥٥) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، مصدر سابق، ص٢٢٤.

(٥٦) السلمى، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص٤١٢.

(٥٧) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٩٩.

وعلى قوله وأمره".[٥٨] بل نقض التوبة من الله، فلا يحتاج اعتذار تعالى جلا شأنه عن الاحتياج، فعن أبو سعيد بن أبي الخير: قيل في مجلسه: إن فلاناً قد تاب، ثم نقض التوبة. فقال رحمه الله: لو لم ينقضه الله التوبة لما نقضها البتة".[٥٩] فإنها كما تتفاضل في كيفيتها كذلك تتفاضل في كميتها. ولو أتى العبد بفرض وترك فرضاً آخر، لإستحق العقوبة على ما تركه دون ما فعله، فهكذا إذا تاب من ذنب وأصر على آخر، فلأن التوبة فرض من الذنبين، فقد أدى أحد الفرضين وترك الآخر فلا يكون ما ترك موجباً لبطلان ما فعل. كمن ترك الحج وأتى بالصلاة والصيام والزكاة، فإن كل ذنب له توبة تخصه، وهي فرض منه، لا تتعلق بالتوبة من الآخر، كما لا يتعلق أحد الذنبين بالآخر.

وللأمانة العلمية فإن موقف أبو علي الجبائى وهو أحد أعلام المعتزلة يقف موقف وسط تبناه بعد ذلك إبن القيم، فيرى أبو علي[٦٠] أنه تصح التوبة ما لم يصر على شيء من ذلك الجنس، فلو أنه تاب من شرب الخمر وأصر على الزنا كان توبته عن الأول توبة نصوحاً صحيحة، فأما إذا أصر على شيء من ذلك الجنس لم تصح توبته، وذلك لأنه لو تاب عن شرب هذا القدح من الخمر مع إصراره على شرب قدح آخر فلا إشكال في أن لا تصح توبته هذه. وهذا هو نفس موقف ابن القيم وأذكر ذلك دفاعاً عن المعتزلة لأنهم الأسبق في الفعل ويكفيهم ما لقوه من لعن وسب قديماً وحديثاً، فهذا العالم الفاضل يتبنى موقف أحد أعلامهم، فيقول: أن التوبة لا تصح من ذنب، مع الإصرار على آخر من نوعه، وأما التوبة من ذنب، مع مباشرة آخر لا تعلق له به، ولا هو من نوعه: فتصح. كما إذا تاب من الربا، ولم يتب من شرب الخمر مثلاً، فإن توبته من الربا صحيحة، وأما إذا تاب من ربا الفضل، ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه، أو

(٥٨) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص١٠٧.

(٥٩) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، مصدر سابق، ص٢٢٦.

(٦٠) نفس المصدر السابق، صـ٧٩٤.

بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر أو بالعكس: فهذا لا تصح توبته.(٦١)

وبصراحة هذه المواقف لم تكن بذى بال عند بعض مشايخ الصوفية، لأنهم يتسألون لماذا ترتكب الذنب أصلاً؟ فهم في حالة مستمرة وعبادة وطاعة غير منقطعة، فهذا أبو حفص الحداد: قيل له: لِمَ لا تحب الدنيا؟ قال: لأنها دوامة، تلقي العباد كل يوم في معصية. قيل: وإن كانت المعاصي في الدنيا، أليس التوبة فيها أيضاً؟ قال: نعم ، ولكن حصول المعصية يقين، والتوبة مشكولة".(٦٢) ومراده أن التوبة ينبغي أن تكون سابقة على الذنب، أي المرء يكون عازماً جازماً على طاعة الله تعالى، والإحتراز عن المخالفة والذنوب، فإنه إذا عزم على الذنب على نية التوبة، فلعل توبته لا تقبل أو لا يوفقه الله تعالى للتوبة ، ويكون مثله كمثل من يشرب السم على قصد أن يشرب الترياق، فيمكن أن لا يجد الترياق، أو لا يلحق شربه، أو لا ينفعه شربه لغاية تأثير السم في مزاجه، أي أن الذنب بمنزلة شرب السم. والتوبة ترياقه ودواءه، والطاعة هي الصحة والعافية، وصحة وعافية مستمرة، خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه. وشر الذنوب ذنب يستعقب التوبة فهذا رويم بن أحمد يقول: "التوبة أن تتوب عن التوبة".(٦٣) ويحي بن معاذ الرازي (ت ٢٥٨هـ) يقول: " ذنب واحد بعد التوبة أسوأ من سبعين بعدها"(٦٤) فإن التوبة عن التوبة إنما تكون بترك الذنوب رأساً، وإذا لم يصدر عنك ذنب فلا تحتاج إلى التوبة، فكأنك تبت عن التوبة. أصل التوبة هنا أن تكون من زواجر الحق، واستيقاظ القلب من نوم الغفلة، ورؤية عيب الحال، وحين يتفكر العبد فى سوء أحواله، وقبح أفعاله، ويتخلص من ذلك،

---

(٦١) ابن القيم، مدراج السالكين ، جـ١ ، مصدر سابق ص٢١٢.

(٦٢) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق ص٤١٣.

(٦٣) الكلاباذى ، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق أرثر جون أربري، مكتبة الخانجي، جـ١، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٦٤.

(٦٤) ابن خميس، مناقب الأبرار، مصدر سابق ص٢٧.

يسهل عليه الحق أسباب التوبة، ويخلصه من شؤم المعصية، ويبلغه حلاوة الطاعة، قال أبو جعفر بن سنان (ت ٣١١هـ) : "غفلتك عن توبة من ذنب إرتكبته شر من ارتكابه"[٦٥]

فإن مشايخ الصوفية هنا لا يحاولون نفي الذنب على الاطلاق لأن ذلك محال، فليس هناك معصوم غير الأنبياء، ولكن يحاولون أن يؤكدوا على أن توبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها. وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة. فإنه تاب عليه أولاً إذناً وتوفيقاً وإلهاماً، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانياً، قبولاً وإثابة، قال الله سبحانه وتعالى: " لَقَد تَّابَ اللَّه عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٨) وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " [التوبة :١١٨/١١٧].

فهؤلاء المشايخ خافوا من تكرار الوقوع في الذنب مخافة موت القلب، أو الاغترار برحمة الله سبحانه وتعالى لهذا رفض هؤلاء أن يكون للذنب فائدة للتائب، فيقول أبو علي الروذبارى: (ت ٣٢٢هـ): "من الاغترار أن تسئ فيحسن إليك، فتترك الإنابة والتوبة توهماً أنك تسامح في الهفوات، وترى أن ذلك من بسط الحق عليك".[٦٦] وقال الواسطي: "التوبة النصوح لا تبقى على صاحبها أثراً من المعصية سراً ولا جهراً ومن كانت توبته نصوحاً لا يبالي كيف أمسى أو أصبح".[٦٧] فإذا ترك التائب المعاصي، وحل عن قلبه عقدة الإصرار، وعزم أن لا يعود إلى مثله، فعند ذلك يخلق إلى قلبه صادق الندم. فيتأسف على ما عمله. ويأخذ في التحسر على ما صنعه من أحواله، فإن أكثر الناس هلك من ثلاثة أشياء: يذنبون رجاء التوبة، ويؤخرون التوبة

---

(٦٥) السلمي، طبقات الصوفية، مصدر سابق ص٣٣٣.

(٦٦) ابن الجوزي، صفة الصفوة، تحقيق، خالد طرطوس، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١٢م، ص٥٩٦.

(٦٧) السلمي، التفسير، مصدر سابق، ص٣٣٧.

لطول الأمل، ويموتون بلا توبة طمعاً في رحمة الله".[٦٨] فإن الخوف من إرتكاب الذنب يؤدي إلى اليقين في التوبة، فالتائب من وصل علمه إلى اليقين، ويقينه إلى الخوف، وخوفه إلى العمل، وعمله إلى الورع، وورعه إلى الإخلاص، وإخلاصه إلى المشاهدة، ففي الرجال من يمشى على الماء، ومنهم من يموت من العطش، وإخلاصه أفضل وأرجح من إخلاص الأول. لذلك سئل الجنيد (ت ٢٩٨هـ) عن الخوف فقال: إنتظار العقاب في كل نَفس يصعد منك. قيل: وما فوق الخوف؟ قال: "التوبة، فإنها تقصير الرجل، ومن إنقصر بالتوبة لا يرى بلاءً أبداً".[٦٩]

وهناك من يرى أن الذنب أنفع للعبد المبتلي أو المفتتن. وصارت لذلك إشكالية وهي: أي الحالين أعلى؟ حال من يجد لذة الذنب في قلبه، فهو يجاهد لله، ويتركها من خوفه ومحبته وإجلاله أو حال من ماتت لذة الذنب في قلبه وصار مكانها ألماً وتوجعاً وطمأنينة إلى ربه، وسكوناً إليه، وتلذذاً بحبه، وتنعماً بذكره؟. وأصبح الفريق الثاني يتهم توبة الفريق الأول، لأنهم لا يعظمون الأمر، ولا يعظمون الآمر. والتصديق بالجزاء، فالعزيمة ضعيفة، والتفات القلب إلى الذنب المرة بعد المرة، وتذكر حلاوة مواقعته يؤدي إلى افساد واتهام التوبة وهذا ما يجعلنا ننتقل إلى مناقشة نسيان الذنب أم تذكرة؟ وكيف يكون الذنب أفيد للعبد؟.

المطلب الثالث : الذنب بين التذكر والنسيان

إن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة، من كثير من الطاعات. وهذا معنى قول بعض المشايخ قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة. ويعمل الطاعة فيدخل بها النار، قالوا: وكيف ذلك؟ قالوا: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه، إن قام، وإن قعد، وإن مشى: ذكر ذنبه. فيحدث له انكساراً، وتوبة، واستغفاراً، وندماً، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة. فلا تزال نصب عينيه. إن قام وإن قعد وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً ومنةً. فتكون سبب هلاكه. فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات وحسنات، ومعاملات قلبية، من خوف الله والحياء

---

(٦٨) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق ص٢٥٥.

(٦٩) ابن خميس، مناقب الأبرار، مصدر سابق ص٣٤٧.

منه، والإطراق بين يديه منكساً رأسه خجلاً، باكياً نادماً، مستقبلاً ربه. فيقول أبو يزيد البسطامي: " التوبة من المعصية واحدة، ومن الطاعة ألف. يعني: العُجب في الطاعة أقبح من المعصية"[٧٠] ويستشهد إبراهيم بن أدهم (ت ١٥٣هـ) بقول سيدنا لقمان عليه السلام: عليك بالذكر من قلب ذليل لرب جليل، وفكر في ذنبك، وتب إلى ربك ينبت الورع في قلبك. [٧١] وقال الحسن البصري: "إذا أذنب عبد ثم تاب لم يزدد من الله إلا قرباً، وهكذا كلما أذنب، لأنه دائم السير بذنبه وبغيره حتى يصل للآخرة". وقال ذو النون المصري: "إن لله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصب أعينهم. وسقوها بماء التوبة، فأثمرت ندماً وحزناً... واستظلوا تحت أوراق الندم، وقرءوا صحيفة الخطايا، فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصولوا إلى علو الزهد بسلم الورع، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا، واستلانوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة".[٧٢]

لذلك يفسر السلمي[٧٣] قوله تعال: "وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ" [الشورى/٢٥] أن بعض المشايخ يرى: إنما يقبل التوبة من رزقه التوبة وتاب عليه فتاب فيكون تلك توبة صحيحة لا من يتوب من غير عزم ولا ندامة على معنى العادة والطبع. وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولةً، وكبراً، وازدراء بالناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار. ولا ريب أن هذا الذنب خير عند الله، وأقرب إلى النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته، الصائل بها، المان بها وبحاله على الله عز وجل وعباده. وإن قال بلسانه خلاف ذلك. فالله شهيد على ما في قلبه. ويكاد يعادي الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه. ويخضعوا له، ويجد في قلبه بُغضة لمن لم يفعل به ذلك. ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كافياً.

---

(٧٠) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٢٠٨.

(٧١) المناوى، الكواكب الدرية، جـ١، مصدر سابق، ص٢٠٠.

(٧٢) عبدالله بن أسعد المكي، روض الرياحين في حكايات الصالحين، مكتبة زهران، القاهرة، د.ت، ص٨٣.

(٧٣) السلمي، التفسير، جـ٢، مصدر سابق، ص٢٢٨.

وسهل بن عبدالله يرى أن "التوبة أن لا تنسى ذنبك"(٧٤) وتخجل منه دائماً حتى إذا ما عملت أعمالاً كثيرة لا تعجب بذلك، لأن الحسرة على العمل السيء تكون مقدمة للأعمال الصالحة. والشخص الذى لا ينسى الذنب لا يعجب بنفسه أبداً. وسئل سهل في معرض حديثه عن التوبة عن الرجل يتوب من الشيء ويتركه ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوة، فقال: الحلاوة طبع البشرية ولابد من الطبع وليس له حيلة، إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى، وينكره بقلبه ويلزم نفسه الإنكار ولا يفارقه، ويدعو الله تعالى أن ينسيه ذكر ذلك، ويشغله بذكره.(٧٥) فيقول أبو الحسن البوشنجي فى التوبة: "إذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره، فهو التوبة".(٧٦) لأن ذكر المعصية أما أن يكون بحسرة أو برغبة، فإذا ذكر أحد المعصية بالحسرة والندم يكون تائباً، وكل من يذكر معصية برغبة يكون عاصياً، فليس فى فعل المعصية من الآفة بقدر مافي الرغبة فيها، لأن فعل المعصية يكون لفترة، أما الرغبة فيها فدائمة، فمن يكن مع المعصية ساعة بجسده لا يكن كمن يصاحبها ليل نهار بقلبه.

وأصحاب هذا الحال ليس لديهم ماضي أو حاضر في إقرار التوبة، لأنهم تائبين عابدين ذاكرين في كل آن ولحظة وليس لديهم كبيرة أو صغيرة، وأصدق وصف عليهم هم جائعين للتوبة، وهنا نقرر أن التوبة عند هؤلاء ليس لها بداية أو نهاية، وهذا عكس ما فعله كبير مشايخ المعتزلة القاضي عبدالجبار(٧٧) من جعله التوبة آخر فصول كتاب شرح الأصول الخمسة، رغبة منه في أن تكون خاتمة أعماله وعاقبة أمره هي التوبة، ويكون ذلك منهجاً للجميع. ويفصل القاضي بين العزم والندم مخالفاً مشايخ الصوفية، فيرى أن العزم أصل والندم شرط، لأن التوبة حسب رأيه إنما تجب على ما مضى فلا بد من أن يكون الأصل فيهما أمراً يتعلق بالماضي، والذى يتعلق بالماضي من هذين الأمرين ليس إلا الندم فإن العزم لا يتعلق بالماضي البته، إذ

---

(٧٤) القشيري، الرسالة، مصدر سابق، ص٩٨.

(٧٥) المكي، قوت القلوب، مصدر سابق، ص٣٠٤.

(٧٦) القشيري، الرسالة، مصدر سابق، ص٩٩.

(٧٧) القاضي عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، مصدرسابق، ص٧٨٩.

المرجع به إلى إرادة مخصوصة. ويرد عليه أبوالعباس بن مسروق الطوسي قائلاً: "متى ما طمعت في المعرفة ولم تحكم قبلها مدراج الإرادة فأنت فى جهل ومتى أطلقت الإرادة قبل تصحيح التوبة فأنت في غفلة مما تطلب".[٧٨] ويؤكد سهل بن عبدالله: "على أنه ليس هناك ماضي وحاضر في التوبة" فيقول: "التائب من يتوب من غفلته في كل لمحة".[٧٩]

أما الموقف الثاني الذى يقرر نسيان الذنب، فكان السبب الأول لهذا الموقف هو الرد على المعتزلة التى قررت أن التوبة هي إرادة واختيار للعبد، فكان الجنيد يرى أنه لا يجب القول بأن التوبة من كسب العبد، لأنها موهبة من مواهب الحق سبحانه وتعالى. فعندما سئل الجنيد بن محمد عن التوبة ماهي؟ فقال: هو نسيان ذنبك[٨٠] فمعنى قول الجنيد أن تخرج حلاوة ذلك الفعل من قلبك خروجاً لا يبقى له في سرك أثر حتى تكون بمنزلة من لايعرف ذلك قط. وهذا نفس ما قالت به رابعة: استغفر الله من قلة صدقي فى قول استغفر الله.[٨١] إن ذكر الوحشة في محل القرب يكون وحشة، ويلزم للتائب ألا يذكر نفسه، فكيف يذكر ذنبه؟. وفى الحقيقة أن ذكر الذنب ذنب، لأنه محل الأعراض، كما أن الذنب محل الأعراض، فإن ذكره أيضاً يكون محل الأعراض، وكذلك ذكر غيره.

ويذكر الجنيد هذا البيت:

إذا قلت ما أذنبت قالت مجيبة حياتك ذنب لا يقاس به ذنب.[٨٢]

يقول الجنيد: دخلت على السرى السقطى يوماً فرأيته متغيراً، فقلت له: مالك؟ فقال دخل على شاب فسألني عن التوبة، فقلت له: أن لا تنسى ذنبك!! فعارضني، وقال: بل التوبة أن تنسى

(٧٨) السلمي، حكم منتخبة، ضمن مجموعة آثار أبو عبدالرحمن سلمي، مصدر سابق، ص١٦٣.

(٧٩) المناوى، الكواكب الدرية، جـ١ ، مصدر سابق، ص٦٣٦

(٨٠) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٣٨.

(٨١) القشيري، الرسالة، مصدر سابق، ص٩٩.

(٨٢) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٣٨.

ذنبك. فقلت إن الأمر عندي ما قاله الشاب، فقال: لم؟ قلت: لأني إذا كنت فى حال الجفاء فنقلني إلى حال الوفاء، فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء فسكت.[٨٣] وهذا التبرير ما قال به الجنيد فى حال نسيان الذنب، لأن التائب عنده يكون محباً، والمحب يكون فى المشاهدة، وذكر الجفاء فى المشاهدة جفاء، فيكون أوقاتاً مع الجفاء، وأوقاتاً مع ذكر الجفاء، وذكر الجفاء حجاب عن الوفاء. وهذا يمثل حال المحبين الذين يروا أن التوبة تأييد رباني من حبيب لحبيبه، أما المعاصى فهي فعل جسماني، فإذا حلت المحبة فى القلب، لا تبقى على الجسد آية آلة تدفع التوبة من القلب.

وأصحاب هذا الحال أيضاً التوبة عندهم متجددة، فهي ملازمة لأنفاس الإنسان، وبالتالي تنتفي عنها اسم توبة المعاينة وهي توبة الضرورة لا الاختيار، قال تعالى: " إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ (*) التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا " [النساء: ١٨/١٧]. كما أن نسيان الذنب دليل على عدم الإصرار، كما أن المحب التائب هو دائماً فى حال استغراق للأوامر والنواهي أي أنه لا يسقط عنه التكليف فى أي لحظة، فكيف يصدر عنه ذنب؟! فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية، فيصير حبيباً لله، فإن الله يحب التوابين بل يحب العبد المصر على التوبة أكثر.

فلا مجال للنفس فى التكفير، فالتوبة هنا مخالفة داعي النفس، وإجابة داعي الحق، ولا داعي للنفس هنا، إذ يعلم استحالة الفعل المخالف لطاعة الله منها. فإن التائب هنا محب لترك الذنب، وليس مكرهاً، ولا محمولاً عليه قهراً كما أنه تائب عن كل كبيرة وصغيرة ، عكس ما قال القاضي عبدالجبار: أن الذين تتميز لهم الصغائر من الكبائر إنما هم الأنبياء دون سواهم. ومن يريد التوبة، عليه أن يميز بين الصغائر والكبائر، فإن تميز له الصغيرة من الكبيرة لم يلزمه التوبة

(٨٣) القشيري، الرسالة، مصدر سابق، ص٩٨.

عنها إلا سمعاً، وإن لم تتميز له الصغيرة من الكبيرة تلزمه التوبة من كل معصية أتى بها لتجويز أن يكون كبيراً.(٨٤)

أى إذا ندم ولم يعزم أو عزم ولم يندم لم يكن تائباً توبة نصوحاً(٨٥) والسؤال كيف يندم الإنسان ويصر على الذنب؟ إن الندم والعزم مسائل قلبيه، ليس اللسان بدليل عليها، فيقول أبو بكر الطمستاني ت بعد سنة ٣٤٠هـ: "فمن صحب – منا – الكتاب – والسنة؟ وغرب عن نفسه، والخلف ، والدنيا؛ وهاجر إلى الله بقلبه؛ فهو الصادق المصيب فى توبته".(٨٦) كما أن العاصي خير من المدعي؟ لأن العاصي – أبداً – يطلب طريق توبته. والمدعي يتخبط فى حبال دعواه".(٨٧) فإن التوبة التى يتحدث عنها القاضي عبدالجبار توبة تأتي بعد الذنب، بل بعد التفكر والعقلانية فى هذا الذنب، فإن كان ولابد فإنها توبة المفاليس وأصحاب الجوائح: توبة غير معتبرة، لا يحمدون عليها، بل تسمى توبة إفلاس، وتوبة جائحة. فهى بحق توبة شكلية.

إذن إنقسام مشايخ الصوفية حول ذكر أو نسيان الذنب، كان لتفادي أو رد على إشكالية معينة، لتكون توبة أقرب إلى الكمال فإنني ضد فكرة التحزب لإتجاه على الآخر، لأن كلا الموقفين ببساطة يرى أن التوبة الصادقة هي التوبة من قريب وتتبارى مشايخ كلا الموقفين من جعلها قريبة، فالذاكر للذنب قريب العهد، والناسي للذنب قريب أيضا بالعهد، فهي لدى الاثنان تحدث فى خلجات النفس وينتشر عبيرها ورائحتها الذكية مع كل نَفَس. فهي توبة قبل المعاينة، وأنا شخصياً أرى أن المعنى هو التوبة قبل التفكير أو التوبة من عند الله قِبل العبد، فالتفكير هو تأخير للتوبة، قال داود الطائي (ت ١٦٢هـ): "من يؤخر التوبة والطاعة مثله كمثل شخص يصطاد ولا ينتفع بصيده؛ بل ينتفع به غيره".(٨٨) الهدف للحَالَيِنْ (حال ذكر أو نسيان الذنب) هو

---

(٨٤) القاضي عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، مصدر سابق ص٧٩٤.

(٨٥) نفس المصدر السابق ص٧٩١.

(٨٦) السلمي، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص٤٧٣.

(٨٧) نفس المصدر السابق، ص٤٨٠.

(٨٨) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٢٨٦.

جعل التوبة من قريب أي تكون قبل المعاينة، أي قبل التفكير واختلف علماء السلف حول معنى قبل المعاينة. قال عكرمة: قبل الموت. وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت. وقال السدى والكلبي: أن يتوب فى صحته قبل مرض موته.[٨٩]

إذن نسيان الذنوب وذكرها فقد اختلف قول العارفين فى ذلك. قال بعضهم: حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك، وقال آخر: حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك، وهذان طريقان للطائفتين، وحالان لأهل مقامين، فأما ذكر الذنوب فطريق المريدين وحال الخائفين يستخرج منهم بتذكيرها الحزن الدائم والخوف اللازم. وأما نسيان الذنوب شغلاً عنها بالأذكار وما يستقبل من مزيد الأعمال، فطريق العارفين وحال المحبين. وأصبح لدينا زعماء لكل مذهب الأول يمثله سهل بن عبدالله، والمذهب الثاني يمثله الجنيد. ويوضح ذلك أبو نصر السراج، فيرى أن سهل أشار إلى أحوال المريدين، تارة لهم، وتارة عليهم، فأما الجنيد فإنه أشار إلى توبة المحققين فإنهم لا يذكرون ذنوبهم بما غلب على قلوبهم من عظمة الله تعالى، ودوام ذكره.[٩٠]

وظهر على إثر ذلك إشكالية – وإن كنت أرفضها– وهذه الإشكالية: أيهما أفضل عبد ترك الذنب وعمل فى الاستقامة ونفسه تنازعه إليه وهو يجاهدها، أم آخر ترك الذنب وصار في طريق الإصلاح والإستقامة ولم يكن فى نفسه مطالبه ولا منازعة ولم يكن فى قلبه منه ثقل ولا مجاهدة؟!. نتج عن الإجابة عليها إلى تقسيم علماء الصوفية إلى قسمين، فنجد قول علماء أهل الشام هو: الذى تنازعه نفسه إلى الذنب وهو يجاهدها أفضل؛ لأن عليه منازعة وله فضل مجاهدة. ومال إلى هذا القول أحمد بن الحوارى وأصحاب أبي سليمان الداراني الذى قال: "ويكون من ذنوبه على يقين ومما أحدث من التوبة على وجل لا يدري أهي مقبولة منه أو مضروب بها وجهه".[٩١] أي يكون التائب فى حالة خوف وقلق من صحة قبول التوبة أو عدم

(٨٩) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، مصدر سابق، ص٢١٨.

(٩٠) القشيري، الرسالة، مصدر سابق، ص٩٨.

(٩١) الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، مصدر سابق ص٦٥.

صحة قبولها. أما القسم الثاني من العلماء يأتي على رأسهم صوفية أهل البصرة، فلقد رفضوا فكرة ذكر الذنب، فقالوا: "إن الذى سكنت نفسه عن المنازعة بشاهدين من شواهد اليقين والطمأنينة فلم يبق فضل العود ولا طلب المعتاد أفضل، ومال إلى هذا رباح بن عمرو القيسى الذى قال: "لو فطر كان هذا أقرب إلى السلامة، ولم يؤمن على الأول الرجوع". وأصحاب هذا الذهب ذهبوا إلى أن التوبة: "أن تترك الذنب كما أتيته وتبغضه كما أحببته". وقيل أيضاً التوبة: هي التى يديم العبد فيها على الاستغفار. وبذلك لا يبقى على صاحبها أثر من المعصية سراً ولا جهراً".[٩٢]

فى معظم الأحيان أرفض فكرة التمذهب والتحزب، لأن فيه شيء من العصبية وأحياناً من التحيز، فإن ديننا الحنيف قائم على الاعتدال. فوجدنا من يريد تضخيم الأمور وجعلها صراع بين مشايخنا، نصل فى النهاية إلى السباب والشتائم وإلى التنابز بالألقاب، فيظهر من يقل أن التائب قائم بنفسه، ويرى نسيان ذنبه غفلة، ومن يقل أنه قائم بالحق، يبد له ذكر الذنب شركاً.

فأعتقد أن الذى يفسر الموقفين بهذه النظرة، فهو خاطئ، فكما أن ذكر الجرم يكون جرماً، فإن نسيانه أيضاً يكون جرماً، لأن تعلق الذكر والنسيان كلاهما مرتبط بك أيضاً.بالتأكيد لست مع هذا أو ذاك، فخير الأمور الوسط، كما قال الحسين المغازلى عندما سئل عن التوبة. "فقال: تسئلني عن توبة الإنابة أو توبة الإستجابة؛ فقال السائل: ما توبة الإنابة؟ قال: أن تخاف من الله من أجل قدرته عليك. قال فما توبة الإستجابة؟ قال: أن تستحي من الله لقربه منك".[٩٣]

وبالتالي فإن أصحاب ذكر الذنب توبتهم توبة إنابة الطريق إليها محفوف بالخوف والقلق. أما أصحاب نسيان الذنب فهم أصحاب توبة استجابة الطريق إليها مملوء بالمحبة والطمأنينة. لهذا

---

(٩٢) السملى، التفسير، جـ١، مصدر سابق، ص٢٢٨.

(٩٣) الكلاباذى، التعرف لمذهب أهل التصوف، مصدر سابق، ص٦٦.

كلا المذهبين على حق والوسط الناتج عنهما أحق، فمن أكثر ذكر الذنوب أعقبه كثرة الندم، ومن استغنى بالله تبارك وتعالى أمن من العدم.(٩٤)

المبحث الثانى : التوبة فى القرآن والسنة

المطلب الأول : التوبة فرض

قال تعالى: " وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " [النور/٣١] ومعناه ارجعوا إليه من هوى نفوسكم من وقوفكم مع شهواتكم عسى تظفروا ببغيتكم فى المعاد. وكي تتقوا ببقاء الله الباقي فى النعيم لا زوال له ولا نفاد ولكي تفوزوا بدخول الجنة وتنجوا من النار فهذا هو الفلاح ففرض بهذه الآية التوبة، ووعد عليها عظيم المثوبة. فإن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور.(٩٥) ولا يجوز تأخيرها. فمتى أخرها عصى بالتأخير. فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى. وهي توبته من تأخير التوبة. فيقول عمرو بن عثمان المكي (ت٢٩١هـ): "التوبة فرض على جميع المذنبين والعاصين، صغر الذنب أو كبر؛ وليس لأحد عذر فى ترك التوبة، بعد ارتكاب المعصية؛ لأن المعاصي كلها قد توعد الله عليها أهلها؛ ولا يسقط عنهم الوعيد إلا بالتوبة. وهذا مما يبين أن التوبة فرض".(٩٦) بل هناك من مشايخ الصوفية من يرى أن من يقول أن التوبة ليست بفرض فهو كافر ومن رضى بقوله فهو كافر. فإن التائب هو الذى يتوب من غفلته فى الطاعات فى كل طرفة ونَفَس. فمن يترك التوبة فهو فى مقام الأعمى، وحياته مقرونة بالشك والظن ودائماً فى حالة نسيان لذكر الله. فقال أبو محمد سهل بن عبدالله: "ليس من الأشياء أوجب على الخلق من التوبة، ولا عقوبة أشد عليهم من فقد علم التوبة ، وقد جهل الناس علم التوبة".(٩٧) فإن التوبة فرض عين فى عموم البشر، فلا يستغنى عنها مخلوق من بني آدم. فكل ابن آدم خطاء، فهو إن خلا من معاصي الجوارح لا يخلو من هم الذنب

(٩٤) عبدالله بن أسعد المكي، روض الرياحين فى حكايات الصالحين، مصدر سابق صـ٢١٤.

(٩٥) المكي، قوت القلوب، مصدر سابق، ص٢٩١.

(٩٦) السلمى، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص٢٠٢.

(٩٧) المكى، قوت القلوب، مصدر سابق، ص٢٩٢.

بالقلب، ولا من الخواطر الشيطانية، فإن خلا منها فلا يخلو عن غفلة وتقصير فى معرفة الله والعمل له. ولهذا جاء خطاب الحق تعالى لعموم البشر: "وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا" [النور/٣١].

تقريراً لذلك قال سهل: "أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله تعالى، والإقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى ، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق".[٩٨] فإذا كانت الشريعة هي الأساس الذى يقوم عليه الطريق الصوفي... فإن التوبة أصل كل خير وفرعه، وهي مفتاح الهداية والتقوى، والثبات عليها مفتاح القرب من الله. فكما يقول الإمام الجيلاني[٩٩] وجب على الناس أربعة أشياء: أولهما: أن يحبوه لأن الله تعالى قد أحبه. والثاني: أن يحفظوه بالدعاء على أن يثبته الله تعالى على التوبة. والثالث: أن لا يعيروه بما سلف من ذنوبه. والرابع: أن يجالسوه ويذاكروه ويعينوه. يا خلق الله توبوا صالحوا ربكم بواسطة التوبة، ما منكم إلا من يحتاج إلى توبة". وقال الله عز وجل: " وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ " [الحجرات/١١]، المذنب –غير التائب– ظالم لنفسه فأسقط اسم الظلم عن التائب.[١٠٠] فإن الله سبحانه وتعالى يفرح بالتائب، فعن أبي هريرة، عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: " قال الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني. والله الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة. ومن تقرب إليَّ شبراً، تقربت إليه ذراعاً. ومن تقرب إليَّ ذراعاً، تقربت إليه باعاً. وإذا أقبل إليَّ يمشي، أقبلت إليه أهرول".[١٠١] وعن أنس بن مالك. أن النبي –صلى الله عليه وسلم–، قال: "ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب".[١٠٢]

---

(٩٨) المناوى، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص٦٣٦.

(٩٩) الجيلاني، الغنية لطالبي طريق الحق، جـ١، تقديم محمد خالد عمر، مكتبة أسامة زيد، حلب، د.ت، ص١٩٠.

(١٠٠) الهروى، منازل السائرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ص١٣.

(١٠١) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب الحض على التوبة والفرح بها، ص٥٠.

(١٠٢) السلمي، التفسير، جـ١، مصدر سابق، ص٢٩٠.

فالتائبون هم: " الْعٰبِدُونَ الْحٰمِدُونَ السّٰٓئِحُونَ الرّٰكِعُونَ السّٰجِدُونَ الْاٰمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنّٰاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحٰفِظُونَ لِحُدُودِ اللّٰهَ " [التوبة/١١٢]. فحفظ حدود الله: جزء التوبة، والتوبة هي مجموعة هذه الأمور. ويفسر السلمى[١٠٣] هذه الآية قائلاً: "الناس أربعة تائب وعابد ومحب وعارف، فالتائب يعمل للنجاة، والعابد يعمل للدرجات، والمحب يعمل للقربات، والعارف يعمل لرضا ربه من غير حظ لنفسه فيه، قال بعضهم التائب: الراجع إليه من كل ما سواه، والعابد المداوم على الخدمه مع رؤية التقصير، والحامد الذى يحمد على الضراء حمده على السراء والسائح هو الذى يسيح فى طلب الأولياء والأوتاد. والراكع الساجد هو الخاضع لله عز وجل فى جميع الأحوال. " **الآمرون بالمعروف**" هم المتحابون في الله، "**والناهون عن المنكر**" هم المتباغضون في الله "**والحافظون لحدود الله**" القائمون معه على آداب السنن والشريعة.

والسلمى هنا يرى التوبة مقام الولي، بل هي مدخل لكل المقامات فيقول الهجويرى: " التوبة: أول مقام لسالكي طريق الحق" [١٠٤] وكذلك يرى السراج التوبة: " أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله"[١٠٥] ويقول المكي: "التوبة أول أصول مقامات اليقين التى ترد إليها أحوال المتقين".[١٠٦] وهي عند الغزالي: "مبدأ طريق السالكين وأول أقدام المريدين".[١٠٧] بل هي فرض على العبد فى كل نفس. كما أن السرى السقطي (ت٢٥٣ هـ) يرى التوبة مدخل لكل شيء، فيصدر من التوبة الاجتهاد، ومن الاجتهاد الصدق، ومنه الزهد، ومنه التوكل ومنه الاستقامة، ومنها المعرفة، ثم تحصل لذة الأنس، ثم الحياء، ثم الخوف من مكر الله تعالى والاستدراج.[١٠٨]

---

(١٠٣) نفس المصدر السابق، ص٢٩٢..

(١٠٤) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٣٥.

(١٠٥) السراج الطوسي، اللمع فى التصوف، تحقيق د/ عبدالحليم محمود، د/ طه عبدالباقي سرور، دار الكتب العربية، بيروت، ص٦٨.

(١٠٦) المكي، قوت القلوب، جـ١، مصدر سابق، ص١٧٥.

(١٠٧) الغزالي، إحياء علوم الدين، جـ٤، دار الكتاب الحديث، ط١، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٢.

(١٠٨) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٣٦١.

ومن وجهة نظري أن سبب اهتمام مشايخ التصوف بالتوبة، هو اهتمام الأنبياء والرسل بالتوبة وظهور ذلك جلياً فى القرآن الكريم وفى أحاديث الرسول –صلى الله عليه وسلم-، ففي القرآن الكريم، يقول تعالى: "اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ" [هود/٣] وقول هود لقومه: "اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا" [هود/٥٥] وقول صالح لقومه: "هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ "[هود/٦١] وقول شعيب: "وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ " [هود/٩٠]. فإن العام والخاص من العباد لا يخلو مما يستوجب التوبة، فآدم نسى أمر ربه ووقع في مكيدة الشيطان بالأكل من الشجرة فلم يزل حسيراً نادماً حتى " فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ " [البقرة/٣٧] ونوح وإبراهيم ويونس وداود وسليمان سلام الله عليهم، تابوا إلى الله جميعاً، وحتى حديث الرسول مع السيدة عائشة في حديث الإفك قالت عائشة تُشهِد رسول الله –صلى الله عليه وسلم- حين جلس ثم قال: "أما بعد. يا عائشة! فإنه قد بلغني عنكى كذا وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب. فاستغفري الله وتوبي إليه".

فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، "تاب الله عليه".(١٠٩) حتى إن السلمي يفسر قوله تعالى:" لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ" [التوبة/١١٧]. إن توبة النبي هي مقدمة توبة الأمة، ليصح بالمقدمة التوابع من توبة التائبين. بل بعضهم يقول: توبة الأنبياء لمشاهدة الحق فى وقت الإبلاغ، لا يغيبون عن الحضرة، بل لا يحضرون مواضع الغيبة، لأنهم فى عين الجمع أبداً.(١١٠) ثم يقول النصر آباذي: متى تاب عليهم حين لا متى قبل التوبة عنهم بإياه لإياه، حين لم يكن آدم، ولا كون أزال عنهم بذلك كل علة أبداً.(١١١)

---

(١٠٩) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب فى حيث الأمل، وقبول توبة القاذف، ص٩٣.

(١١٠) السملى، التقسيم، ط١، مصدر سابق، ص٢٩١.

(١١١) نفس المصدر السابق، ص٢٩٠.

فهذا ليس معناه أن الأنبياء مذنبين وهم المعصمين من الذنب، ولكن هذا تأكيد على أهمية التوبة، فإذا كان الأنبياء مُصريين ومجددين للتوبة هذا حالهم وهم رضعاء العناية الإلهية منذ الأزل، فما بالك الأمر بمن تحتهم من بني البشر، فإذا كان هؤلاء – الأنبياء – السادات الكبراء ولاة الخلق والشرع وخلفاء الله فى خلقه، حالهم كذلك، فما حالك يا مسكين، وأنت فى دار الغرور، فى اقطاع الشياطين، مُحيط بك جنود الأعداء من الخلق والهوى والنفس والشهوات والوساوس وتزيين الشيطان والإغتراء بالعبادات الظاهرة.(١١٢) هنا يفتح لهم الخالق باباً يسمى باب الرحمة وهي التوبة، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: "والذى نفسي بيده! لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم".(١١٣) فيصدق عليهم قول الله تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" [التحريم/٨]. فجعل وقاية شر السيئات بحصول التوبة. والتوبة لها وجوه وتفسير، فهناك التوبة من الذنب بين الله وبين عباده، وهناك التوبة من الذنب بين العبد وبين الناس. فعلى ذلك تكون التوبة توبتان.. الأولى فى حق الله، والثانية فى حق العباد. والتوبة من ذلك كله: الندم على ما مضى، والاستغفار بالقلب واللسان والاصرار والعزم أن لا يعود إلى شيء من ذلك أبداً، قليلاً كان أو كثيراً.(١١٤)

فأما التوبة فيما هو بين العبد والحق تعالى، هذه التوبة تجعل العبد قريباً من الله، فمن كان قريباً من الله تعالى كان حريصاً على امتثال أوامره، ومن كان بعيداً من الله كان معرضاً عن سُنة رسول الله صل الله عليه وسلم، فإن التائبين أعرف الناس بالله وأشدهم مجاهدة فى أوامره، وأتبعهم لسنة نبيه. فيقول يحى بن معاذ (ت ٢٥٨هـ):"جوع التوابين تجربة ...". (١١٥) وأخبرنا، تبارك وتعالى: أن الملائكة تدعو لهؤلاء التائبين:" الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ

(١١٢) الجيلاني، الغنية، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٥٠.

(١١٣) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار، توبة، ص٥٥.

(١١٤) المكي، قوت القلوب، مصدر سابق، ص٢٩٤.

(١١٥) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٢٩.

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ويُؤْمِنُونَ بِهِ ويَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَتِي وعَدتَّهُمْ ومَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وأَزْوَاجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ " [غافر:٧/٨].

وبالتالي فإن من لزمته التوبة لا يخلو حاله من أحد أمرين: إما أن يكون ذلك لأمر بينه وبين الله تعالى، أو لأمر يتعلق بالآدميين، فإن كان ذلك الشيء بينه وبين الله تعالى، فإما أن يكون من باب الاعتقادات أو من باب الأفعال.

فإن معيار سعادة هؤلاء إذا ماتوا ماتت معهم ذنوبهم، أي أنهم دائماً فى مقام التوبة. ويكون لكل عضو من الأعضاء توبة: فتوبة القلب العزم على ترك الحرام. وتوبة العين إغماضها عن المحارم، وتوبة اليد ترك أخذ الحرام، وتوبة الرجل ترك المشي الى الحرام، وتوبة السمع ترك استماع الحرام، وتوبة البطن ترك أكل الحرام، وتوبة الفرج الاحتراز عن الفواحش. فإن هذه التوبة تكون بقضاء ما عسى أن يكون التائب قد فرط فيه من فروض العبادة، والتكفير عن المعاصي السابقة. ويرى شقيق البلخي: أن تفسير هذه التوبة:"أن ترى جرأتك على الله، وترى حلم الله عنك".(١١٦) ومعنى ذلك أن الذنب لا يضر الأحبة التائبين، فالتوبة طهارة، وهذا يعني أن العبد لا يكفر بالذنب، ولا يتأتى فى إيمانه ضرر، وحين لا يضر الذنب الأصل، فإن ضرر المعصية التى عاقبتها النجاة، لا يكون ضرراً فى الحقيقة. فعن أبي هريرة، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – فيما يحكي عن ربه عز وجل قال:"أذنب عبد ذنباً. فقال: اللهم! اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب! اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، أعمل ما شئت فقد غفرت لك".(١١٧)

(١١٦) السلمي، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص٦٥.

(١١٧) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب، وإن تكررت الذنوب والتوبة، ص٦٣.

ودلالة هذا الحديث ظاهرة وهي أنه لو تكرر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر وتاب فى كل مرة قبلت توبته وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها صحت توبته. المهم فى هذه التوبة هو عدم الاصرار والاصرار عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به. فهذا الذى يمنع مغفرته. قال حاتم الأصم:"العجلة من الشيطان، إلا فى خمس: إطعام الطعام، إذا حضر ضيف، وتجهيز الميت، إذا مات ، وتزويج البكر، إذا أدركت، وقضاء الدين، إذا وجب، والتوبة من الذنب، إذا أذنب".(١١٨) ومن ثم فإنه لا شرط فى صحة هذه التوبة العصمة إلى الممات، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك: محي عنه إثم الذنب بمجرد ذلك. فإذا إستأنفه إستأنف إثمه، فإن إستمرار التوبة شرط فى صحة كمالها ونفعها. لا يشترط فى صحة ما مضى منها.(١١٩)إذن هل يشترط فى صحتها أن لايعود الى الذنب أبداً، أم ليس ذلك بشرط؟ أي أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده، فهل يعود إليه إثم الذنب الذى قد تاب منه ثم عاوده، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر، إن مات مُصراً؟ أو إن ذلك قد بطل بالكلية. فلا يعود إليه إثمه، وإنما يعاقب على هذا الأخير؟.

قال إمام الحرمين:"تصح التوبة من ذنب وإن كان مُصراً على ذنب آخر، وإذا تاب توبة صحيحة بشروطها ثم عاود ذلك الذنب، كتب عليه ذلك الذنب الثاني ولم تبطل توبته".(١٢٠) ويجوز عند أهل السنة والجماعة ومعظم مشايخ المعرفة أن يتوب الشخص عن ذنب واحد، ويذنب ذنوباً أخرى، ويثيبه الله على ذلك الذنب الذى رجع عنه، وربما يرده عن الذنوب الأخرى ببركة ذلك، مثل شخص سكير وزان: يتوب عن الزنا، ويصر على شرب الخمر، فتكون توبته من الذنب الأول صحيحة، مع ارتكابه للذنب الثاني.(١٢١) ولو تكررت التوبة ومعاودة الذنب صحت، ثم توبة الكافر من كفر. مقطوع بقبولها. لذا لا يعود إليه إثم الذنب الذى تاب منه

(١١٨) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٩٣.

(١١٩) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، مصدر سابق، ص٢١٦.

(١٢٠) الجوينى، الارشاد، تحقيق د / محمد يوسف، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٠م، ص٢٥٠..

(١٢١) الهجويري، كشف المحجوب، جـ١، مصدر سابق، ص٥٣٧.

بنقض التوبة بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة، وصار بمنزلة ما لم يعمله. وكأنه لم يكن، فلا يعود إليه بعد ذلك، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضي[١٢٢] وهنا يخالف أهل السنة ومشايخ الصوفية أهل الإعتزال، فأما أبو هاشم الجبائي[١٢٣]، قد ذهب الى أنه لا تصح التوبة عن بعض القبائح مع الاصرار على البعض، ويرى القاضي عبدالجبار أن ذلك هو الصحيح من المذهب، والذى يدل على صحته – من وجهة نظره – أن التوبة عن القبيح يجب أن تكون ندماً عليه لقبحه وعزماً على أن لا يعود الى أمثاله فى القبح على ما تقدم، وإذا كان هذا هكذا، فليس تصح توبته عن بعض القبائح مع الاصرار على البعض، إذ لا يصح أن يترك أحدنا بعض الأفعال لوجه، ثم لايترك ما سواه فى ذلك الوجه، ألا ترى أنه لا يصح أن يتجنب سلوك طريق لأن فيها سبعاً، ثم لا يتجنب سلوك طريق أخرى فيها سبع، وكذلك ألا يصح أن لا يتناول طعاماً لأن فيه سماً، ثم يتناول طعاماً آخر مع أن فيه سماً. فالشرط هنا: عدم معاودة الذنب، ومتى عاد إليه تبيناً – حسب اعتقادهم – فإن التوبة كانت باطلة غير صحيحة والأكثرون لا يعتبرون ذلك شرطاً، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته، فإذا عاوده، مع عزمة حال التوبة على أن لا يعاوده صار كمن إبتدأ المعصية، لم تبطل توبته المتقدمه.

وهناك رأي آخر يرى أن التوبة المتخللة بين الذنبين لا تسقط الإثم السابق، كما لا تمنع الإثم اللاحق. لأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها، والموافاة عليها، والمعلق على الشرط يعدم عند عدم الشرط. كما أن صحة الإسلام مشروطة بإستمراره والموافاة عليه. هذه الآراء حاول صاحب قوت القلوب.[١٢٤] أن يجمع بينها، فيرى الناس فى التوبة أربعة أقسام فى كل قسم طبقة، لكل طبقة مقام منهم تائب من الذنب مستقيم على الإنابه لا تحدث نفسه بالعود الى معصية أيام حياته، مستبدل بعمل سيئاته صالح حسناته فهذا هو السابق بالخيرات، وهذه هي التوبة النصوح،

(١٢٢) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، مصدر سابق، ص٢١٤.

(١٢٣) القاضي عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، مصدر سابق، ص٧٩٥.

(١٢٤) المكي، قوت القلوب، مصدر سابق، ص٣٣٢.

ونفس هذا هي المطمئنة المرضية. فيقول فى حقها إبراهيم الدقاق:"التوبة أن تكون لله وجهاً بلا قفا كما كنت له قفا بلا وجه".(١٢٥)

والعبد الثاني عند عقده التوبة تكون نيته الاستقامه لا يسعى فى ذنب ولا يقصده ولا يمحوه ولا يهم به وقد يبتلى بدخول الخطايا عليه من غير قصد منه إليها ويبتلى بالهمم واللمم. فهذه من صفات المؤمنين ترجى له الاستقامة ونفسه هي اللوامة لأنه في طريقها. ويصف ذلك سهل بن عبدالله: "أن من جوهر النفس رجل له عداوة مع إنسان فيظهر الصداقة الى أن تزول العداوة بالكلية." ويقول شاه الكرماني(توفى تقريباً قبل ٣٠٠ هـ): ترك الدنيا، فإنك تبت. يعتي التوبة حقيقية، هو ترك الدنيا(١٢٦) والعبد الثالث هو الذى تقرب من هذا الثاني فى الحال، عبد يذنب ثم يتوب ثم يعود الى الذنب، ثم يحزن عليه بقصد له وسعى فيه وايثاره إياه على الطاعة، إلا إنه يُسَوِف بالتوبة ويحدث نفسه بالاستقامة، ويحب منازل التوابين ويرتاح قلبه إلى مقام الصديقين. ويرى أبو بكر الطمستاني (ت بعد ٣٤٠هـ) سبب ذلك هو النفس لأنها:"كالنار، إذا أطفئ من موضع، تأجج من موضع كذلك النفس، إذا هدأت من جانب ثارت من جانب".(١٢٧)

أما العبد الرابع أسوأ العبيد حالاً وأعظمهم على نفسه وبالاً، وأقلهم من الله تعالى نوالاً عبد يذنب ثم يتبع الذنب مثله أو أعظم منه، ويقيم على الإصرار ويحدث نفسه به متى قدر عليه ولا ينوى توبة، ولا يعقد إستقامة، ولا يرجوا وعداً يحسن ظنه ولا يخاف وعيداً فهذا هو حقيقة الاصرار ومقام هذا من العتو والاستكبار. وقال أبو بكر الوراق:"من كانت همته الدين، فالله يصلح جميع أموره الدنيوية، ومن كانت همته الدنيا، فالله تعالى يفسد أموره الدينية أيضاً بشؤم ذلك".(١٢٨) وقال على الخرقاني فى حق هؤلاء: "كم من الناس يمشون على وجه الأرض، وهم

---

(١٢٥) الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، مصدر سابق، ص٦٥.

(١٢٦) السلمي، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص١٩٣، وكذلك العطار تذكرة الأولياء، ص٤٠١.

(١٢٧) نفس المصدر السابق، ص٤٧٤.

(١٢٨) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٦٣٣.

أموات وكم منهم فى بطن الأرض وهم أحياء!".[١٢٩] أما الجنيد، فعندما سُئل: ما الفرق بين قلب المؤمن وقلب المنافق؟ قال: "أما المؤمن فقلبه يتحول من حال إلى حال أخرى فى ساعة سبعين مرة، والمنافق قد يستمر على حاله سبعين سنة".[١٣٠]

هذه هي التوبة الأولى الكائنة بين العبد وربه. أما التوبة الثانية فهي بينه وبين الآدميين. وعلى العموم فإن التوبة هنا الرجوع عن الذنب ولها ثلاثة أركان الاقلاع والندم على فعل تلك المعصية والعزم على أن لا يعود إليها أبداً. فإن كانت المعصية لحق آدمي فلها ركن رابع وهو التحلل من صاحب ذاك الحق. وهذه التوبة توبة عن مظالم العباد التى لا يُترك منها شيء، فهذه المظالم تكون فى النفوس أو الأموال أو الأعراض ولهذا يقول الجنيد: "التوبة على ثلاثة معاني: أولها الندم، والثاني العزم على ترك المعاودة إلى ما نهى الله عز وجل عنه، والثالث السعي فى أداء المظالم".[١٣١] فإذا كانت المظلمة فى النفوس، فالتوبة بتسليم الدية إذ كان القتل خطأ، فإن كان عمداً فتوبته القصاص، إلا أن يعف أهل القتيل.[١٣٢] فعن أبي سعيد الخدري؛ أن نبي الله – صلى الله عليه وسلم– قال: "كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً. فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب. فأتاه فقال: إنه قال تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا فقتله. فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم. فقال: إنه قتل مائة نفس. فهل له من توبة؟ فقال: نعم. ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم. ولا ترجع الى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه الى الله. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فآتاهم ملك فى صورة آدمي. فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين. فإلى أيتهما كان أدنى، فهو له.

(١٢٩) نفس المصدر السابق، ص٦٥٣.

(١٣٠) نفس المصدر السابق، ص٤٥٤.

(١٣١) ابن خميس، مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار، مصدر سابق، ص٣٤٧.

(١٣٢) الجيلاني، الغنية، جـ١، مصدر سابق، ص٣٤٧.

فقاسوه فوجدوه أدنى الى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة".(١٣٣) وأما الأموال فالتوبة من مظالمها تكون بردها لأهلها وتصفية مال التائب من الشبهات. ثم يقول القاضي عبدالجبار(١٣٤): "ثم إن تلافى ما وقع منه يختلف، فإن كان الواقع منه القتل فتلافيه هو أن يسلم نفسه الى ولي الدم إن طالبه بها ولم يعف عنه، وإن كان الواقع منه الغصب فتلافيه هو أن يرد المغصوب بعينه الى صاحبه إن كان العين باقياً، وإن لم يكن فمثله إن كان من ذوات الأمثال، وإلا فقيمته إن كان من ذوات القيم، هذا إن كان صاحبه حياً، فإن لم يكن فإلى ورثته، فإن لم يكونوا فإلى الإمام، فإن لم يكن فإلى الفقراء، وصار سبيله سبيل العشور والزكوات.

أما إذا كان ذنباً مستوراً أى ستره الله عليه، فلا يجب أن يفتضح ويهتك سره، بل يستتر بستر الله، ويتوب إلى ربه ويشتغل بأنواع المجاهدات من صوم وقيام الليل وقراءة القرآن وكثرة التسبيح. ما من ذنب ستره الله على عبده فى الدنيا إلا غفره له فى الآخرة، إن الله تعالى أكرم من أن يكشف ذنباً كان قد ستره وما من ذنب كشفه الله تعالى فى الدنيا إلا جعل عقوبته فى الآخرة. فالله أكرم من أن يثني عقوبته على عبده. فإن التوبة الأولى المقبولة – بين العبد وربه – من وجهة نظر يحي بن معاذ الرازي ثلاثة أشياء: "قلة الأكل بسبب الصوم، وقلة النوم بسبب الصلاة، وقلة الكلام بسبب الذكر".(١٣٥) أما أبو بكر الكتاني فقد خص التوبة الأولى – توبة العبد بينه وبين ربه – بثلاثة أشياء، وخص التوبة الثانية – فى حق العباد– بثلاثة أشياء، فقال: "التوبة اسم جامع لستة أشياء: الأول: الندم على ما فات، والثاني: العزم على أن لا يعود الى الذنب أبداً، والثالث: أن يقضي ما فات بينه وبين الله تعالى من الفرائض، والرابع: رد المظالم إلى أربابها، والخامس إذابة لحم نبت من حرام، والسادس: أن يذيق الجسد مرارة الطاعة كما أذاقه حلاوة المعصية".(١٣٦)

---

(١٣٣) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل، وإن كثر قتله، ص٦٩.

(١٣٤) القاضي عبدالجبار، شرح الأصول الخمس، مصدر سابق ص٧٩٢.

(١٣٥) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص٣٩٣.

(١٣٦) نفس المصدر السابق، ص٥١٣.

عموماً فى كلا التوبتين تصريح بإعلان المحبة والطهارة وتأكيد على ظهور أحكام التوبة، أي تظهر أمور مشتركة فى كليهما قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ" [البقرة/٢٢٢] وكما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: "التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له" وقال تعالى: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا" [البقرة/١٦٠] قوله: تابوا يعني رجعوا إلى الحق من أهوائهم، وأصلحوا يعني ما أفسدوا بنفوسهم، وبينوا: فيها وجهان أحدهما بينوا ما كانوا كتموا من الحق، وأخفوا من حقيقة العلم، وهذا لمن عصى بكتم العلم ولبس الحق بالباطل، وقيل بينوا توبتهم حين تبين ذلك فيهم وظهرت أحكام التوبة عليهم.[١٣٧]

وأحكام التوبة هي درجاتها وأقسامها، يقول سهل بن عبدالله: أول شيء يجب على المبتدئ التوبة، وهي عبارة عن الندامة على ما مضى من الذنوب والأفعال، وقلع الشهوات عن القلب، والإنتقال من الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة. وقال: لا تحصل التوبة لأحدٍ إلا إذا لازم الصمت والسكوت والخلوة، وهما لا يصحان إلا بعد أكل الحلال، والحلال لا يحصل إلا بعد أداء حق الله تعالى، وحق الله تعالى لا يؤدي إلا بحفظ الجوارح، والكل لا يتيسر إلا بعد الاستعانة بالله تعالى على الجميع.[١٣٨]

إذن البداية والنهاية فى التوبة هو الالتزام بالكتاب والسنة، قال سعيد بن بريد النباجي: "خمس خصال ينبغى للمؤمن أن يعرفها: معرفة الله، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال؛ فإن من عرف الله، ولم يعرف الحق، لم ينتفع بالمعرفة، وإن عرف الحق، لم يُخلص، لم ينتفع بالمعرفة، وإن لم يكن على السنة، أو لم يكن أكله حلالاً لم ينتفع بالخمس".[١٣٩]

(١٣٧) ابن القيم، مدارج السالكين جـ١، مصدر سابق، ص٢٢٢.

(١٣٨) المكي، قوت القلوب، مصدر سابق، ص٢٩٩.

(١٣٩) المناوي، الكواكب الدرية، مصدر سابق، ص٦٢٦.

المطلب الثانى : أقسام التوبة

يقول أبا على الدقاق؛ التوبة على ثلاثة أقسام: أولها التوبة، وأوسطها الإنابة، وآخرها الأوبة. فجعل التوبة بداية، والأوبة نهاية، والإنابة واسطتهما. فكل ما تاب لخوف العقوبة فهو صاحب إنابة. ومن تاب مراعاة للأمر لا للرغبة فى الثواب أو رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة... والإنابة: صفة الأولياء والمقربين، قال الله تعالى: "وجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ" [ق/٣٣]، والأوبة: صفة الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالي: " نِعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ".(١٤٠) [ص/٣٠]

فإن للتوبة مقامات ثلاثة أولها: التوبة، والثاني: الإنابة، والثالث: الأوبة. فالتوبة: الخوف من العقاب. والإنابة: لطلب الثواب، والأوبة: لرعاية الأمر، لأن التوبة مقام عامة المؤمنين، وتكون من الكبيرة، لقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً".(١٤١) [التحريم/٨]، فالتوبة: الرجوع عن الكبائر إلي الطاعة، والإنابة: الرجوع عن الصغائر إلي المحبة، والأوبة: الرجوع عن النفس إلى الله تعالي. والفرق ظاهر بين من يرجع عن الفواحش إلى الأوامر، ومن يرجع عن اللمم والوهم إلي المحبة، وبين من يرجع عن نفسه إلي الحق. يقول عبدالله بن علي التميمي: "شتان ما بين تائب يتوب من الذلات، وتائب يتوب من الغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات".(١٤٢) فالتوبة علي ثلاثة أنواع: واحدة من الخطأ إلى الصواب، والثانية من الصواب إلي الأصوب، والثالثة من النفس إلي الحق. وتكون من الخطأ إلى الصواب لقوله تعالي: "والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ" [آل عمران/١٣٥]. ومن الصواب إلي الأصوب ما قاله موسى عليه السلام "تُبْتُ إِلَيْكَ".[الأعراف/١٤٢] ومن النفس إلي الحق.

---

(١٤٠) الجيلانى، الغنية، جـ١، مصدر سابق، ص١٩٠.

(١٤١) السلمى، التفسير، جـ٢، مصدر سابق، ص١٨٤.

(١٤٢) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص ٩٨.

إلا أن ذو النون المصري جعل التوبة توبتان: توبة عامة وهى عامة لكل المؤمنين، والتوبة الخاصة وهى التى تحتوى توبة الإنابة والأوبة، فقال: "توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة".(١٤٣) وكذلك قال نُبان الحمال: "التوبة على وجهين: توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة".(١٤٤) أما أبو طالب المكي، فيرى أن التوبة لعامة المؤمنين والرجال الصالحين، فلا يرى إلا التائب المنيب، لأن الأنبياء معصمون من الذنب، فليست لهم توبة، ويستشهد بقول السرى السقطي الذى قال: من شرط التوبة ينبغي للتائب المنيب أن يبدأ بمباينة أهل المعاصي، ثم بنفسه التى كان يعصى الله تعالى بها. والسقطى يؤكد على أن أهل التوبة لا بد أن يحاسبوا نفوسهم فى كل طرفة ويدعوا كل شهوة ويتركوا الفضول وهي ستة أشياء: ترك فضول الكلام، وترك فضول النظر، وترك فضول المشي، وترك فضول الطعام والشراب واللباس، ولا يقوى على ترك الشبهات إلا من ترك الشهوات.(١٤٥)

وهنا المكي متأثراً بالسقطى يقدم الإنابة على التوبة، فإن أول الاستغفار الاستجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة. فالاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة إقباله على مولاه، ويترك الخلق ثم يستغفره من تقصيره الذى هو فيه، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر.(١٤٦)

على العموم لن نقف كثيراً أمام التقديم والتأخير، فالذى يجمع التوبة والإنابة والأوابة الرجوع الى الله سبحانه وتعالى، قال ابن عطاء: التوبة الرجوع من كل ما ذمه العلم إلى ما مدحه.(١٤٧) واستصلاح ما تعدى فى سالف الأزمنة، ومداواتها باتباع العلم ومن لم تعقب توبته الصلاح كانت توبته بعيدة عن القبول. حتى الإمام جعفر الصادق يقول: "لم يرجع إلى الحق من رجع الى سواه حتى يكون رجوعه ظاهراً وباطناً إليه دون غيره حينئذ يكون تائباً إليه. والمنيب أيضاً

---

(١٤٣) نفس المصدر السابق، ص ٩٨.

(١٤٤) السلمى، التفسير، جـ٢، مصدر سابق، ص٦٩.

(١٤٥) المكي، قوت القلوب، مصدر سابق ص ٢٩٩.

(١٤٦) نفس المصدر السابق، ص ٣٢٤.

(١٤٧) السلمى، التفسير، جـ٢، مصدر سابق، ص٦٩.

هو الراجع الى الله". فإن اللفظة تحمل معنى(١٤٨) الاسراع والرجوع والتقدم. والمنيب إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت، والإنابة فى اللغة تعني الرجوع، أي الرجوع إلى الحق. وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلى الحق اصلاحاً، كما رجع إليه اعتذاراً. والرجوع إليه وفاء. كما رجع إليه عهداً. والرجوع إليه حالاً، كما رجعت إليه إجابة.(١٤٩) قال ابن عطاء "منيبين" أي: راجعين إليه من الكل خصوصاً من ظلمات النفوس مقيمين معه على حد ذات العبودية لا يفارقون عرصته بحال ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه هو أجر المنيبين إن شاء الله.(١٥٠) فإن الإنابة الرجوع منه إليه لا من شيء غيره فمن رجع من غيره إليه ضيع إحدى طرفي إنابته على الحقيقة من لم يكن له رجع سواه فرجع إليه من رجوعه ثم رجع من رجوع رجوعه ثم فنى من رجوعه فبقى شبحاً لا وصف له قائماً بين يدي الحق مستغفراً فى عين الجمع قطع عنه سبل الفرقة والإخبار عن الأكوان.

وبالتالي فإن توبة مشايخ الصوفية إنابة والإنابة إنابتان(١٥١): إنابة لربوبيته. وهي إنابة المخلوقات كلها. والإنابة الثانية لأوليائه. وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة. وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والاقبال عليه، والاعراض عما سواه. فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع. قال تعالى"وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ" [ص/٢٤]، قال سهل: "وأناب" الإنابة هي الرجوع من الغفلة الى الذكر مع انكسار القلب وانتظار المقت. لذلك أضحت الإنابة أجل من التوبة لأن التائب يرجع نفسه فيسمى تائباً ولا يسمى منيباً إلا من رجع على ربه بالكلية وفارق المخالفات أجمع. ففى تفسير السلمى يرى أن: إنابة العبد أن يرجع إلى ربه من نفسه

---

(١٤٨) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، مصدر سابق، ص٣٣١

(١٤٩) نفس المصدر السابق، ص٣٣١.

(١٥٠) السلمى، التفسير، جـ٢، مصدر سابق، ص١٢٥.

(١٥١) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، مصدر سابق، ص٣٣٠.

وقلبه وروحه فإنابة النفس أن يشغلها بخدمته وطاعته وإنابة القلب أن يخليه مما سواه وإنابة الروح دوام الذكر حتى لا يذكر غيره ولا يتفكر إلا فيه.(١٥٢)

الإنابة للأولياء تتحقق بإجابة المقال والحال، فإن الله سبحانه وتعالى قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولاً. فلابد من الإجابة حالاً تصدق به المقال. فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها. وكل قول فصدقه وكذبه شاهد من حال قائله. فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال. فارجع إليه إجابة بالحال. فإذا ضفت الإنابة إلى ربه تخلص من الفكرة فى لذة الذنب. وعاد مكانها ألماً وتوجعاً لذكره، والفكرة فيه. فما دامت لذة الفكرة فيه موجودة فى قلبه، فإنابته غير صافية.

ومن علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة، وتخشي على أهل الغفلة النقمة، لكن ارج لهم الرحمة واخشى على نفسك النقمة. إذن الإنابة هي حال الولى، فإذا استقرت قدمه فى منزل التوبة نزل بعده منزل الإنابة وقد أمر الله تعالى بها فى كتابه. وأثنى على خليله بها، فقال: "وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ": [الزمر/٧٥] وقال: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ" [هود/٧٥] وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة. قال تعالى:"تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ" [ق/٨].(١٥٣)

أما الأوابة وهي توبة الأنبياء والرسل، فهي تعني الرجوع أيضاً إلى الله فى صبره لم يطالع نفسه فيه لأن تبدد الهم من أعظم العقوبات. فقال بعض الصوفية: لم يستعذب البلاء من لم ير البلاء عطاء. نعم العبد عبد سره بلاؤنا كما سره عطاؤنا نعم العبد عبد عرف أن لا رجوع له إلا إلى مولاه فرجع إليه. فإنه أواب أى عارف بتقصير الخلق ونقصانهم، وكمال الحق ووجوده فرجع إلى حد الكمال والوجود.(١٥٤) قال تعالى:" وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ" [ص/٣٠]. يقول الجنيد: العبد الأواب هو الذى يكون مطروحاً عند ربه كالميت فى يد الغاسل لا يكون له

(١٥٢) السلمى، التفسير، جـ٢، مصدر سابق، ص١٨٤.

(١٥٣) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، مصدر سابق، ص٣٣٠.

(١٥٤) السلمى، التفسير، جـ٢، مصدر سابق، ص١٨٩.

تدبير ولا حركة وإنما تدبيره ما يدبر فيه وحركته كما يحرك. والجنيد يؤكد على أن: العبد الذى لا يرى لنفسه ملكاً ولا حكماً بل الأملاك وما دارت عليه الأفلاك لسيده وعلامة صدق العبودية إظهار وسم العبودية فيه هوالانكسار والتذلل والاستكانة والخضوع. وسئل أبو حفص من العبد؟ قال من يرى نفسه مأموراً لا آمراً. أى أن: الأواب: الذى لا يطيع طاعة ولا يفعل خيراً إلا استغفر منها. فيقول أبو سليمان الداراني: "الأواب الذى لا يشغل إلا بربه". الأواب هو الشاكر بالسر والعلانية عند فوادح الأمور.(١٥٥) قال تعالى: "لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ" [ق/٣٢]. وهذه المعانى يؤكد عليها بعض مشايخ الصوفية وعلى رأسهم سهل، فيقول الأواب: هو الراجع بقلبه من الوسوسة إلى السكون إلى الله والحفيظ المحافظ على الطاعات والأوامر. وقال ابن عيينه: الأواب الحفيظ الذى لا يقوم من مجلس حتى يستغفر الله منه خيراً كان أو شراً لما يرى فيه من الخلل والتقصير. أما الحارث المحاسبي فيقول: "الأواب" الراجع بقلبه إلى ربه والحافظ قلبه فى رجوعه إليه أن يرجع منه الى أحد سواه. أى أن: الأواب الذى لا يشتغل إلا بالله.

إذن الأواب هو الذى لا يوافق غير ربه ولايطالع غير حده. ومن علامات الأواب: من كان باطنه أحسن من ظاهره وظاهره سليماً للخلق.(١٥٦) هذه الأقسام الثلاثة للتوبة تمثل مرحلة الاعتقاد فى التوبة ثم العمل على قبول تلك التوبة وهذه التوبات الثلاث أطلق عليهم مرة التوبة النصوح ومرة التوبة من قريب، فالأولى تعني الصدق فى التوبة وتمثل الطاعة أى الجانب العملي، والثانية تمثل السرعة فى الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى وسنتناول ذلك فى شروط صحة التوبة. فلما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والاقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والنصح فى طاعته. كما قال: "إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا"[الفرقان/٧٠] وقال: "إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا" [البقرة/١٦٠] فلا تنفع توبة وبطالة. فلابد من توبة وعمل صالح: ترك لما يكره، وفعل لما يحب، تخل عن معصيته، وتحل بطاعته.

---

(١٥٥) نفس المصدر السابق، ص١٨٩.

(١٥٦) نفس المصدر السابق، ص٢٦٨.

المبحث الثالث: شروط وفضائل التوبة

المطلب الأول : شروط قبول التوبة

لابد أن تكون التوبة من معصية من حيث هي معصية، بمعنى أن الندم على المباح أو الطاعة لا يسمى توبة. ومن حيث هي معصية لأن من ندم على شرب الخمر لما فيه من الصداع أو خفة العقل أو الاخلال بالمال والعرض لم يكن تائباً شرعاً. وهناك من يقول: لكي تكون توبة لابد من توافر القدرة، لأن من سلب القدرة منه على الزنا مثلاً وانقطع طمعه عن عود القدرة إليه إذا عزم على تركه لم يكن ذلك توبة منه.[١٥٧]

وهذا الشرط الأخير فيه اختلاف، فإن توبة العاجز أو المضطر توبة صحيحة ممكنة بل واقعة. فإن أركان التوبة مجتمعة فيه. والمقدور له منها الندم. فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه، فهذه توبة. وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه، مع شدة ندمه على الذنب، ولومه نفسه عليه، ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه، وعزمه الجازم، ونيته أنه لو كان صحيحاً والفعل مقدوراً له لما فعله. قال إبراهيم بن أدهم (ت ١٥٣ هـ): عندما سئل: "ما علامة التوبة؟" فقال: "إدمان البكاء على ما سلف من الذنوب والخوف المقلق من الوقوع فيها، وهجران إخوان السوء، وملازمة أهل الخير"[١٥٨] فإذا كان الشارع قد نزل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها، إذا صحت نيته. فتنزيل العاجز عن المعصية، التارك لها قهراً – مع نيته تركها اختياراً لو أمكنه – منزلة التارك المختار أولى.[١٥٩]

فعلى هذا النحو السابق تكون توبة السالك تحولاً جذرياً من التخبط فى دهليز الدنايا، إلى السير فى طريق الأخيار. وتكون بذلك هي التوبة النصوح الواردة فى قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا" [التحريم/٨]. والنصوح الخالص لله تعالى، الخالي من الشوائب.

---

(١٥٧) التهانوى ، كشاف اصطلاحات الفنون، جـ١، مصدر سابق ص١٩٢.

(١٥٨) ابن ملقن، طبقات الأولياء، مصدر سابق، ص١٤.

(١٥٩) إبن القيم، مدارج السالكين، جـ١، مصدر سابق، ص٢١٩.

والنصوح على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة. كالشكور والصبور. وأصل مادة (ن– ص – ح) لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة، وهو ملاق فى الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص. فالنصح فى التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد. وايقاعها على أكمل الوجوه. والنصح ضد الغش.[١٦٠] فنصوحاً من النصح جاء على وزن فعول للمبالغة فى النصح. وقد قرئت نصوحاً بضم النون فتكون حينئذ مصدر نصحت له نصحاً ونصوحاً والمصادر أيضاً تدخل على التصريف للبلاغ فى الفضول فمعناه خالصة لله تعالى وقيل اشتقاقه من النصاح وهو الخيط أي مجردة لا يتعلق بها شيء وهو الاستقامة على الطاعة من غير روغان إلى مصيبة كم تروغ الثعالب وأن لا يحدث نفسه بعود إلى ذنب متى قدر عليه وأن يترك الذنب لأجل الله تعالى خالصة لوجهه كما ارتكبه لأجل هواه، مجمعاً عليه بقلبه وشهوته.[١٦١]

ولقد اختلف مشايخ الصوفية على أصول ومبادئ التوبة النصوح، وقد أفاضوا فى الكلام عنها، إلا إنهم أجمعوا على ثلاثة شرائط لتحقيق التوبة النصوح وهي: الاعتراف، والندم، والاقلاع، سئل أبا علي الروذباري (ت ٣٢٢هـ) عن التوبة النصوح فقال: "الاعتراف، والندم ، والإقلاع".[١٦٢] وهناك من يرى التوبة النصوح على عشر مقامات أولها الخروج من الجهل والندم على الفعل والتجافى عن الشهوة واعتقاد مقت النفس المسئولة واخراج المظلمة واصلاح الكسرة واسقاط الكذب وترك قرين السوء والخلو من المعصية والعدول عن طريق الغفلة هذه بأجمعها وسلوك سبيل التوبة فإذا اجتمعن صحت التوبة دخلت فى جملة التوبة النصوح. وبالتالى فإن التوبة النصوح الصدق فيها سراً وعلناً وقولاً وفكرة. أى أن تترك الذنب كما أتيته وتبغضه كما أحببته، وقيل: التوبة النصوح التى يديم العبد فيها على الاستغفار. فيجمل ذلك أبو سليمان الداراني فيقول: "التوبة النصوح أن يكون صاحبها نادماً على ما مضى مجمعاً عقده وعزمه فيما

(١٦٠) نفس المصدر السابق، ص٢٣٧.

(١٦١) المكي، قوت القلوب، مصدر سابق، ص٢٩٢

(١٦٢) السلمي، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص٣٥٧.

بقى أن لا يعود وجل القلب فيما بين ذلك ويكون من ذنوبه على يقين ومما أحدث من التوبة على وجل لا يدري أهي مقبولة منه أو مضروب بها وجهه".[١٦٣] وبذلك تكون توبة لا عقد عِوض وهي التوبة التى لا تحتاج منها إلى توبة.

ففي خبر ابن عباس من ضيع فرائض الله عز وجل خرج من أمانة الله عز وجل وعنده التوبة النصوح تكفير السيئات ودخول الجنات. وكان بعض الصوفية يقول: قد علمت متى يغفر لله لي، قيل ومتى قال إذا تاب الله عليَّ. وقال آخر: إن أحرم التوبة أخوف منى من أن أحرم المغفرة. قال تعالى:"فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ" [البقرة/١٨٧]. وقال تعالى فى مثله: "وهُوَ الَذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ويَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ" [الشورى:٢٥]، فقال بعض العلماء: لا تصح التوبة لعبد حتى ينسى شهواته ويكون ذاكراً للحزن لا يفارق قلبه ذاهباً عن الذنب لا يخالج سره، ويكون دائم الحزن علي الذنب والسرور بحسن الإنابة. فلا يكون المريد تائباً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال معصية عشرين سنة.[١٦٤] وقال بعض العلماء: من علامة صدق التائب فى توبته أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة الطاعة. فإن العبد لا يكون تائبا حتى تدخل مخالفة النفس مكان حلاوة موافقتها، فيبدل حلاوة الهوى حلاوة الترك للشهوات. حتي إن سهل بن عبدالله يقول: أول ما يؤمر به المبتدئ المريد بالتوبة وهو تحويل الحركات المذمومة إلى حركات محمودة، ويلزم نفسه الخلوة والصمت، ولا تصبح له توبة إلا بأكل الحلال، ولا يقدر على الحلال حتى يؤدى حق الله تعالى فى الخلق، وحق الله تعالى فى نفسه، ولا يصح له هذا حتى يبرأ من كل حركة وسكون إلا بالله وحتى لا يأمن الاستدراج بأعمال الصالحات، وحقيقة التوبة أن يدع ماله حتى لا يدخل فيما عليه، ولا يكون تسوف أبداً إنما يلزم الحال فى الوقت.[١٦٥]

---

(١٦٣) نفس المصدر السابق، ص٢٩٩.

(١٦٤) السلمى، التفسير، جـ٢، مصدر سابق، ص٣٧٧.

(١٦٥) المكي، قوت القلوب، مصدر سابق، ص٢٩٧.

إذن التوبة النصوح جعل الله إليها سبيل، والتوبة النصوح فيها شبه إجماع على أن أول شرط وأهمهم على الإطلاق هو الندم على ما كان من الذنوب وتركها والاستغفار منها وترك الاصرار عليها والعزم على أن لا يعود أبداً إليها، فتلك التوبة المقبولة: يقبلها التواب الرحيم، فرحم الله عبداً إتقى الله فى نفسه، وتطهر بالتوبة قبل الموت والفوت ولم تغره الحياة الدنيا ولم يغره بالله الغرور، وليبادر بالتوبة قبل أن يسألها فلا يجاب إليها، لهذا فإن أرباب الأصول من أهل السنة قالوا: شروط التوبة، حتى تصح، ثلاثة أشياء: الندم على ما عمل من المخالفات. وترك الذلة فى الحال. والعزم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصى. وهذه الأركان لابد منها، إلا أن الندم يمثل الركن الأهم والأعظم، ومن أهل التحقيق من قال: يكفي الندم فى تحقيق ذلك؛ لأن الندم يستتبع الركنين الآخرين فإنه يستحيل تقدير أن يكون نادماً على ما هو مُصِر على مثله؛ أو عازم على الإتيان بمثله.[١٦٦] فالتوبة لا تصح إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخراً. قال الحارث المحاسبي (ت٢٤٣هـ): "الذى يبعث العبد على التوبة ترك الاصرار. والذى يبعثه على ترك الاصرار ملازمة الخوف".[١٦٧] ومقصده أن الندم توبة: هذا اللفظ يحتوى تقريباً شروط التوبة، لأن أول شروط للتوبة هو الأسف على المخالفة، والشرط الثاني: ترك الذلة فى الحال، والثالث: العزم على عدم الرجوع إلى المعصية، وهذه الشروط الثلاثة مرتبطة بالندم، لأنه عندما يحدث الندم فى القلب يكون الشرطان الآخران تابعين له.[١٦٨] فالتائب لا يكون تائباً إلا عندما يقر بالذنب والاعتراف بظلم السيئة والمعصية ثم حلال الطعمة لأنها أساس الصالحات ثم الندم. وحقيقة الندم – إن كان حقاً – ألا يعود إلى مثل ما تقدم وما وقع الندم عليه. ثم اعتقاد الاستقامة على الأمر ومجانبة النهي. وألا يصحب جاهلاً

---

(١٦٦) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٣٦.

(١٦٧) السلمى، طبقات الصوفية، مصدر سابق، ص٥٨.

(١٦٨) القشيرى، الرسالة، مصدر سابق، ص٩٦.

فيرديه الاشتغال باصلاح ما أفسد فى أيام بطالته ليكون من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوا فإن الله لا يصلح عمل المفسدين.[١٦٩]

فإذا كان للتوبة شروطاً ثلاثة، فإن للندم أسباب ثلاثة، الأول: أنه عندما يستولى خوف العقوبة على القلب ويتأتى الحزن على الفعال السيئة فى القلب، يحدث الندم. والثاني: أنه عندما تستولى الرغبة فى النعمة على القلب، ويعرف أنها لا تتأتى بالفعل السيء والمعصية، فإنه يندم لذلك على أمل أن يجدها. والثالث: أنه يخجل من الله، ويندم على المخالفة، فواحد من هؤلاء الثلاثة، تائب، وواحد منيب، وواحد أواب.[١٧٠] وبالتالي التائب على ثلاث طبقات حسب شدة الندم، الأول: قوم مَنَّ الله تعالى عليهم بأنوار الهداية فعصمهم بها عن الكفر والشرك. والثانية: مَنَّ عليهم بأنوار العناية فعصمهم بها عن الصغائر والكبائر. والثالثة: قوم مَنَّ عليهم بالكفاية فعصمهم بها عن الخواطر الفاسدة، وعن حركات أهل الغفلة.[١٧١]

إذن الندم هو توجع وانخلاع القلب عند علمه بفوات محبوبه.[١٧٢] فإن حصول الندم والتأسف بقلب العبد إيذاناً بتوبته التوبة الخالصة، كما أن لصدق الندم علامات، منها: رقة القلب، غزارة الدمع، طول التحسر والتأسف على ما فرط العبد فى جنب الله[١٧٣] ومنها أيضاً: "أنه لا يزال الخوف مصاحباً له ولا يأمن مكر الله طرفة عين. فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه:" أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ " [فصلت/٣٠]. فهناك يزول الخوف، وأيضاً من علامات صدق الندم: انخلاع قلبه وتقطعه ندماً وخوفاً. وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها. وهذا تأويل ابن عيينه[١٧٤] لقوله تعالى:" إلا أَنْ تُقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ" [التوبة/١١٠].

(١٦٩) المكي، قوت القلوب، مصدر سابق، ص٢٩٣.

(١٧٠) الهجويرى، كشف المحجوب، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٣٦.

(١٧١) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص١٠٠٣.

(١٧٢) الجيلاني، الغنية، جـ٢، مصدر سابق، ص٥٥٨.

(١٧٣) د/ يوسف زيدان، الطريق الصوفي، دار الجيل، ط١، بيروت، ١٩٩١م، ص٣٦.

(١٧٤) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، مصدر سابق، ص١٤٣.

قال: تقطعها بالتوبة. ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه. وهذا هو تقطعه. وهذه حقيقة التوبة. لأنه يتقطع قلبه حسرةً على ما فرط منه، وخوفاً من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرةً وخوفاً، تقطع فى الآخرة إذا حقت الحقائق. وعاين ثواب المطيعين. وعقاب العاصين. فلابد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة. ولأنه بتلك التوبة تحصل له الندامة على الماضي، وهو معرض فى الحال عن ذلك الجنس من المعصية، وعازم على أنه إذا وجدت الآلة وتهيأت الأسباب فإنه لن يعود أبداً إلى هذه المعصية.

ندعو الله سبحانة وتعالى أن نكون من التائبين المقبولين عند الله قبولاً حسناً، فيكون حالنا بعد التوبة أكثر خيراً مما كان قبلها. ونفعل كما فعل داود عليه السلام من نقش الخطيئة فى كفه. وكان ينظر إليها ويبكي. فمتى تهنا عن الطريق، فنرجع إلى ذنوبناً نجد الطريق، فيتحقق لنا فضائل وخيرات التوبة المقبولة.

المطلب الثانى : فضائل التوبة

إن التوبة مخ العقيدة وأساس الطاعات، فتعلم الإنسان أن هناك رباً باب رحمته ومغفرته مفتوح لمن تاب وأناب قال تعالى: "فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا" [النصر/٣] وقال تعالى: "فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ " [البقرة/٣٧]. فإن للتوبة فضائل عظيمة، تعود على الإنسان بالخير فى الدنيا والآخرة أهمها: محبة الله للتائب. ومن فضائل التوبة أيضاً أنها ترسم طريق الأخلاق وتوضح أهميته، فكم من أمم وشعوب ضاعت وانهارت خُطاها بضياع الأخلاق، فإن التوبة تزكي النفس: أي تطهير النفس وتنقيتها من الآثام والخطايا. وعدم الوقوع فى المعاصى، والندم على ما كان منها. ومن أعظم فضائل التوبة الأخلاقية جعل التائب يملك لسانه من الفضول والغيبة والنميمة والكذب قال تعالى: "وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا" [الحجرات/١٢]. وأن يجتنب سوء الظن قال تعالى: "اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ" [الحجرات/١٣].

كما أن التوبة تجعل قلب التائب نقياً طاهراً، فلا يرى لأحد فى قلبه حسداً ولا عداوة، ويفارق إخوان السوء وصحبة المعصية الذين يشوشون صحة العزم، ويكون مستعداً للموت مستغفراً من ذنوبه مجتهداً فى طاعة ربه، فتتحقق هنا معنى التوبة من قريب، أي عن قرب عهد بالخطيئة ولا يتمادى فيها ولا يتباعد عن التوبة، فيعقب الذنب بعملاً صالحاً.(١٧٥) فإن القلب الذى لا عهد له بالتوبة فهو قلب مريض. قال ذو النون: "القلب المريض له أربعة علامات: الأولى: أن لا يجد حلاوة العبادة. والثاني: أن لا يكون خائفاً من الله تعالى. الثالث: أن لا يعتبر عن الأشياء. الرابع: أن لا يفهم من العلم ما سمع. أما علامة وصول الشخص إلى مقام التوبة أن يكون مخالفاً للهوى، وتاركاً للشهوات".(١٧٦)

وكلنا نتساءل: لماذا غاب الإستقرار والأمن الإجتماعي داخل المجتمعات؟ الإجابة ببساطة لغياب التوبة واضمحلال فكرة وثقافة الاعتذار، فغابت بين الإنسان وربه، فضاعت بين الآدميين فانهارت قيم التسامح والمحبة بين الناس، فإن التوبة تجلب الراحة النفسية للتائب وأيضاً الطمأنينة، كما أن التوبة توضح وترسم العلاقة بين الإنسان وربه وبين الإنسان وأخيه، قال أبا عثمان الحيري.(١٧٧) (ت ٢٩٨هـ): الصحبة مع الله: بحسن الأدب؛ ودوام الهيبة، والمراقبة، والصحبة مع الرسول – صلى الله عليه وسلم– باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله تعالى بالاحترام والخدمة، والصحبة مع الأهل: بحسن الخلق، والصحبة مع الإخوان: بدوام البشر ما لم يكن إثماً، والصحبة مع الجهال: بالدعاء لهم والرحمة عليهم".

فإن لأهل التوبة بُشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، فهم فى الدنيا بمأمن من الذنوب، وفى الآخرة يخفف عنهم العذاب، فإن من حاسب نفسه فى الدنيا وأخذ من الخلق ما يستحقه، وأعرض عما ليس له، وخاف من طول الحساب يوم القيامة، فعلى أي شيء يُحاسب فتكون إحدى

(١٧٥) القشيري، الرسالة، مصدر سابق، ص٩٦.

(١٧٦) العطار، تذكرة الأولياء، مصدر سابق، ص١٧٥.

(١٧٧) القشيري، الرسالة، مصدر سابق، ص٣٦.

كرامات الله عليه: أن يخرجه من الذنوب وكأنه لم يذنب قط.(١٧٨) وهذا هو أحد التأويلات فى قوله تعالى: "وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا" [الفرقان/٧١]. فإن التوبة تكون أولاً بالقصد والعزم على فعلها. ثم إذا قوى العزم وصار جازماً: وجد به فعل التوبة. فالتوبة الأولى: بالعزم والقصد لفعلها. والثانية: بنفس ايقاع التوبة وايجادها. والمعنى: فمن تاب إلى الله قصداً أو نيةً وعزماً، فتوبته إلى الله عملاً وفعلاً.(١٧٩)

وأخيراً فإن من فضائل التوبة أيضاً رفع البلاء وتوسيع الرزق، فإن العبد التائب دائماً فى سعة من الرزق، فيرى نفسه فارغاً عما ضمن الله له من الرزق، فيسقط التدبير ويشتغل بما أمر الله به. وفى ذلك ذكر القرآن الكريم ما قاله النبي هود: " وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ" [هود/٥٢].

الخاتمة

وفى النهاية تأتي الخاتمة التى تحتوي على أهم النتائج التى توصل إليها الباحث حول موضوع "التوبة من البداية إلى النهاية".

أولاً: اتفق أهل السنة والجماعة على أن التوبة من جميع المعاصي واجبةً وأنها واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة والتوبة قلب الشريعة النابض فهي من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة ووجوبها عند أهل السنة بالشرع، وعرفنا قبولها بالشرع والاجماع، فإن قبولها كرماً وفضلاً من الله. قال تعالى: "بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ" [الحجرات/١٧].

أما عند المعتزلة تجب التوبة بالعقل وإذا توافرت ووجدت شروطها بالعقل وجب على الله سبحانه وتعالى قبولها. ثم المعتزلة اشترطوا فى التوبة أموراً ثلاثة: رد المظالم. وأن لا يعاود ذلك

(١٧٨) الجيلاني، الغنية، جـ١، مصدر سابق، ص١٩٠.

(١٧٩) ابن القيم، مدارج السالكين، جـ١، مصدر سابق، ص٢٤٠.

الذنب وإن يستديم الندم وهي عند أهل السنة غير واجبة فى صحة التوبة. فإن رد المظالم واجب ولكن ذلك ليس له مدخل فى الندم على ذنب آخر. وأما أن لا يعاود فلأن الشخص قد يندم على الأمر زماناً ثم يبدله بذنب آخر والله تعالى مقلب القلوب من حال إلى حال. وغايته أنه إذا ارتكب ذلك الذنب مرة أخرى وجب عليه توبة أخرى.

ثانياً: أما التوبة النصوح عند أهل السنة والجماعة تتضمن ثلاثة أشياء. الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته. والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها. بحيث لا يبقى عنده تردد. ولا انتظار. بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها. الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة فى اخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده. لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرفته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه.

فإن شرائط التوبه عند أهل السنة: الندم والاقلاع، والاعتذار، فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه فى الماضي. والاقلاع عنه فى الحال. والعزم على أن لا يعاوده فى المستقبل. فيقال لمن يرجع عن الخطأ إلى الصواب: تائب، ولمن يرجع عن الصواب إلى الصواب: آيب فإن التوبة لا تتحقق إلا بالندم، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، واصراره عليه.

ثالثاً: التوبة عند مشايخ التصوف علم وعمل لدرجة أن ذو النون المصري يرى أن العلوم ثلاثة: أولها علم التوبة وقبله العلم العام والخاص،[١٨٠] فيصل الحال عندهم أن من يطلب الإرادة قبل تصحيح التوبة، فهو في غفلة وجهل عما يطلب.[١٨١] فإن التوبة رجوع ثم الاستغراق فى الطاعة. وبذلك تكون التوبة المقبولة هي التى تكون مقرونة بالعمل وبالتالي فإن ارتكاب الخطأ

(١٨٠) جامي، نفحات الأنس، مصدر سابق، ص٧٣.

(١٨١) المناوى، الكواكب الدرية، جـ١، مصدر سابق، ص٥٢٩.

قبيح ومذموم، والرجوع من الخطأ إلى الصواب طيب ومحمود، وهذه توبة العامة، فإن الاستقرار مع الصواب وقفة وحجاب. والرجوع من الصواب إلى الأصوب محمود فى درجة أهل الهمة، وهذه توبة الخواص، ومحال أن يتوب الخواص من المعصية. فإن مخافة العارف على طاعته أشد من مخافته من مخالفته، لأنه يورث من المخالفة: الندم، والتوبة، والرجوع إليه. ويورث من الطاعة الرياء والكبر".[١٨٢] فإن التوبة عند مشايخ الصوفية تهذيب وإصلاح للنفس، فالتائب يتوب من توبته.

رابعاً: أما أن يكون بحثي بعنوان "**مفهوم التوبة بين الصوفية والمعتزلة وموقف أهل السُنة منهم**"، فينتج عن ذلك أن التوبة لها مبدأ ومنتهى، فمبدأها: الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم، الذى نصبه لعبادة، موصلاً إلى رضوانه. وأمرهم بسلوكه. بقوله تعالى: "وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ " [الأنعام/١٥٣]. وبقوله: "وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ" [الشورى/٥٢]. وبقوله: "وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ" [الحج/٢٤]. ونهايتها، الرجوع إليه فى المعاد. وسلوك صراطه الذى نصبه موصلاً إلى جنته، فمن رجع إلى الله فى هذه الدار بالتوبة: رجع إليه فى المعاد بالثواب. فيكرمه الله تعالى بأن يخرج من الذنوب كأنه لم يذنب ويقربه منه ويحبه سبحانه وتعالى، كما لا يسلط عليه الشيطان ويحفظه منه، فلا يخاف وبالتالي يصدق فيه قوله تعالى: "تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ " [فصلت/٣٠].

ولهذا أدعو بدعاء إبراهيم بن أدهم: نسأل الله تعالى الوهاب الملك التواب أن يتوب علينا بمنه وينظر إلينا نظر الرحمة والعناية، ولا يخلى عنا الكفاية والهداية، ويجنبنا عن موافقة النفس، ومتابعة الشيطان فى البداية والنهاية، ويحفظنا عن الضلالة والغواية إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، نعم المولى هو ونعم النصير.

---

(١٨٢) السلمى، التفسير، جـ٢، مصدر سابق، ص٣٦.

قائمة المصادر والمراجع

●ابن الجوزى، صفة الصفوة، تحقيق، د/ خالد طرطوس، دار الكتاب العربى، بيروت، ٢٠١٢م.

●ابن القيم، مدارج السالكين، الجزء الأول، تصحيح د/ محمد عبدالله، دار التقوى، القاهرة، ٢٠٠٤م.

●ابن تيمية، الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تحقيق، د/ مصطفى العدوى، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت.

●ابن خميس، مناقب الأبرار ومحاسن الأخيار، الجزء الأول، تحقيق، د/ محمد أديب الجادر، مركز زايد للتراث والتاريخ، الطبعة الأولى، الإمارات، ٢٠٠٦م.

●ابن ملقن، طبقات الأولياء، تحقيق د/ نورالدين شريبة، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٣م.

●التهانوى، كشاف اصطلاحات الفنون، الجزء الأول، دار صادر، بيروت، د.ت.

●جامى، نفحات الأنس، تحقيق، د/ محمد أديب الجادر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

●الجوينى، الارشاد، تحقيق، د/ محمد يوسف، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٠م.

●الجيلانى، الغنية لطالبى طريق الحق، الجزء الأول، تقديم د/ محمد خالد عمر، مكتبة أسامه بن زيد، حلب، د.ت.

●الحسن البصرى، رسالة فى القدر، ضمن كتاب رسائل العدل والتوحيد، الجزء الأول، تحقيق د/ محمد عمارة، دار الهلال، القاهرة، د.ت.

●السلمى، التفسير، الجزء الثانى، تحقيق، د/ سيد عمران، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٢م.

●السلمى، حكم منتخبة، (ضمن مجموعة آثار أبوعبدالرحمن سلمى)، مؤسسة مطالعات إسلامى، طهران، ١٣٨٨هـ.

●السلمى، طبقات الصوفية، دار الكتاب العربى، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٣م.

●الطوسى، اللمع، تحقيق د/ عبدالحليم محمود، د/ طه عبدالباقى سرور، دار الكتب العربية، بيروت، د.ت.

●عبدالرحمن بدوى، شهيدة العشق الإلهى (رابعة العدوية)، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٢م.

●عبدالله بن أسعد المكى، روض الرياحين فى حكايات الصالحين، مكتبة زهران، القاهرة، د.ت.

- العطار، تذكرة الأولياء، الجزء الأول، تحقيق وترجمة د/ منال اليمنى عبدالعزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- على سامى النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، الجزء الثالث، دار المعارف، الطبعة العاشرة، القاهرة، ٢٠١٨م.
- الغزالى، إحياء علوم الدين، الجزء الرابع، دار الكتاب الحديث، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- القاسم الرسى، أصول العدل والتوحيد، ضمن كتاب رسائل العدل والتوحيد، الجزء الأول، تحقيق د/ محمد عمارة، دار الهلال، القاهرة، د.ت.
- القاضى عبدالجبار، المختصر فى أصول الدين، ضمن كتاب رسائل العدل والتوحيد، الجزء الأول، تحقيق د/ محمد عمارة، دار الهلال، القاهرة، د.ت.
- القاضى عبدالجبار، شرح الأصول الخمسة، حققه وقدم له د/ عبدالكريم عثمان، مكتبة وهبه، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٩٩٦م.
- القشيرى، الرسالة، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح، القاهرة، د.ت.
- الكلاباذى، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق، آرثر جون اربرى، مكتبة الخانجى، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٤م.
- مسلم، الصحيح، بشرح النووى، تحقيق د/ محمد فؤاد عبدالباقى، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٥م.
- المكى، قوت القلوب، الجزء الثانى، تحقيق د/ عبدالحميد مدكور، د/ عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٧.
- المناوى، الكواكب الدرية، الجزء الأول، تحقيق د/ محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، د.ت.
- الهجويرى، كشف المحجوب، الجزء الثانى، ترجمة د/ اسعاد عبدالهادى قنديل، تقديم، د/ بديع جمعه، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- الهروى، منزل السائرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.
- يوسف زيدان، الطريق الصوفى، دار الجيل، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩١م.